الفصل الثالث

طمس الحقائق التاريخية فى كتب التاريخ المدرسية

- مصادر التاريخ الإسلامى.
- أقسام التاريخ.
- أصحاب الجمل وعلى ﷺ.
- معاوية بن أبى سفيان ﷺ.
- الدولة العثمانية.
- السلطان عبد الحميد الثانى.
- الحروب الصليبية.
- الحملة الفرنسية.
- محمد على باشا.
- الإكتشافات الجغرافية.

obeikandl.com

طمس الحقائق التاريخية فى كتب التاريخ المدرسية

تمهيد

تعرضت الأمة المسلمة لأكبر عملية خداع تاريخية، وما زالت، يقصد بها طمس ذاكرتها، حتى يسهل قطع حاضرها عن ماضيها، فلا تعود تذكر إلا هذا الحاضر المتفسخ العاجز الذليل فتيئس، وتغلب على أمرها وتستسلم للواقع وحيل بين هذه الأمة وبين تاريخها الحقيقي بأسلوب علمي ذكي مخطط ومدروس.

قامت مراكز الابحاث التاريخية فى الغرب بأكبر عملية تزييف للتاريخ، وتولى عملية التزييف هذه جيش من المستشرقين ، ومن قاموا بتربيتهم من الأساتذة المسلمين .. لم يحدث قط فى أية فترة من فترات التاريخ أن تعرض تاريخ أمة لمثل هذه العملية المنظمة والمكثفة من التزييف.

ولما كان للكتاب المدرسي أهمية بالغة فى تحقيق أهداف السياسة التعليمية ــ أدرك ذلك أعداء الأمة ـ لذلك تسللوا إليه فى غفلة من جماهير الأمة الإسلامية، ودسوا فيه الأفكار والموضوعات التى تهدف إلى تخريج أجيال ملحدة، وكافرة بكل القيم الإسلامية، فبسطوا فيه موضوعات غير ذات صلة بالدين، وليس لقضايا الإيمان بالله أو الأخلاق الإسلامية فيها نصيب، وتناولوا فيها تفصيلات لا لزوم لها، شغلت المساحات الواسعة التى تهدر أوقات الطالب والمعلم وولى الأمر .

وفى الوقت ذاته ضغطت الموضوعات الإسلامية، واختزلتها، وعرضتها عرضاً سيئاً مشوهاً لا يغرس فى نفوس الطلاب إعجاباً ولا إعتزازاً بماضى الأمة.

ويعجب المرء حين يتصفح كتب التاريخ المدرسية فى مؤسساتنا التعليمية ويرى مدى حرص الإستعمار الصليبي ومن ورائه قوي الصهيونية العالميه على حجب الحقائق التاريخية وتزييفها ليتم استقطاب أبناء المسلمين وبناتهم عن دينهم وتراثهم الحق، وليسهل عليهم السيطرة على عالمنا الإسلامي ثقافياً وإقتصادياً وعسكرياً.

وإنه لمن المؤلم حقاً أن يرى الباحث المسلم من الكذب والتزوير والإفتراء فى العديد من الدراسات التاريخية التى كتبت وأقرتها الفئة العلمانية، أو تلك الدراسات التى

كتبتها أيد صليبية أو صهيونية كان لها اليد الطولي فيما وصلنا إليه ثم يقف متفرجاً لا يحرك ساكناً.

إن كل بلاد العالم تكتب تاريخها إلا هذه الأمة تركت الآخرين يكتبوا تاريخها كما يشاؤون وفق رغباتهم ونزعاتهم السياسية..لقد كتب اليهود والمستشرقون تاريخنا حسبما أملته عليهم أهواءهم ونزعاتهم الدينية !!.

لذلك فقد آن الأوان لكتابة تاريخ الأمة بروح موضوعية ومن جديد وبأسلوب ودراسة علمية مجردة لتنوير الرأى العام والجيل الجديد الذى ما يزال يتخبط فى خضم الكتابات المزيفة المضللة بدلا من الحقائق التاريخية المجردة.

إن المأساة الكئيبة أن المسلمين يجهلون تاريخهم الحقيقي .. ولابد من إعادة النظر فى تاريخنا الذى نُدَرسَهُ لأجيالنا ضمن مناهج التعليم.

مصادر التاريخ الإسلامي والحقيقة التاريخية

إن مصادر التاريخ الإسلامي بحالتها الراهنة لا تعبر تعبيراً حقيقياً عن الأحداث التاريخية ومن الغريب أن يقبل عليها كتاب التاريخ الإسلامي يأخذون منها دون تمييز الخبيث من الطيب، والصحيح من الضعيف.

لقد استغل أعداء الإسلام من اليهود والنصارى وأتباعهم من الأعراب صبيانهم فترات الفتن والخلافات السياسية المذهبية، فاختلقوا الروايات التى تظهر صحابة رسول الله ﷺ بمظهر الذين باعوا دينهم وأنفسهم من أجل المال وزينة الحياة الدنيا.

والمسلم لا يمكنه التسليم بهذه المهازل عن رجال الصدر الأول ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [1] والذين قال عنهم النبي ﷺ "... فو الذى نفسى بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه"[2]

يؤكد الإمام الطبري أنه روى أخباراً شنيعة لا تُقبل، وذلك أداءً للأمانة نقلا عن

(١) الحشر ٨.
(٢) عن حديث لرسول الله ﷺ رواه الأربعة فى الجامع للأصول ص ٣٠٤

غيره فيقول: (فما يكون فى كتابي هذا من خبر ذكرناه عن بعض الماجنين مما يستنكره قارئه أو يستشنعه سامعه من أجل أنه لم يُعرف له وجهاً صحيحاً ولا معنى فى الحقيقة، فليعلم أنه لم يؤت ذلك من قبلنا وإنما أتى من بعض ناقليه إلينا وإنما أدينا ذلك على نحو ما أدى إلينا)[1]

ويقول المؤرخ المسلم **عبدالرحمن بن خلدون:**

"وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالطات فى حكايات الوقائع التاريخية لإعتمادهم فيها على مجرد النقل غثا أو سميناً ولم يعرضوها على أصولها، ولا قاسوها بأشباهها، ولا سيروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبايع الكائنات، وتحكيم النظر والبصيرة فى الأخبار، فضلوا عن الحق وتاهوا فى بيداء الوهم والغلط"[2]

لقد وقع التاريخ الإسلامي ضحية مؤامرات كبرى استهدفت الافتراء على أصول الإسلام والباس الباطل ثوب الحق، والطعن فى رجال الإسلام وقادته لإثبات أن المسلمين لم يثبتوا على دينهم إلا فترات قليلة من تاريخهم الأول ثم ضلوا السبيل وركبوا موجة الأهواء كغيرهم من أصحاب الملل والنحل.

يقول الدكتور **عبدالمنعم ماجد:** "يجب الحذر فى تلقى الروايات لأن معظم الكتب عن الدولة العربية، وصلتنا من العهد العباسي الذى كان فى عداء مع العرب..يجب تحرى صحة الحقيقة التاريخية لأن قصد مؤرخى الإسلام الأوائل، لم يكن غير استيعاب الأخبار والمحافظة على كيفية اتصالها."[3]

ويفسر هذا الموقف القاضى الأندلسي "أبى بكر بن العربي" فى كتابه "العواصم من القواصم"، رافضا التسليم بمعطيات المؤرخين، ومعترضا على طرائقهم فى تلفيق الروايات المتعارضة قائلاً بأن الروؤساء وذوى لسلطة ساعدوا على إشاعة هذه الكتب وقراءتها لرغبتهم فى مثل أفعالهم حتى صار المعروف منكرا والمنكر معروفا.

إن معيار الأخبار فى تاريخ كل أمة الوثوق من مصادرها، والنظر فى ملائمتها

---

(١) أنظر سالم على البهنساوى ـ الغزو الفكري للتاريخ والسيرة ـ دار القلم ـ الكويت ـ نقلا عن المسلم المعاصر العدد ٣٠ جمادى الأولى سنة ١٤٠٢ ص ٢١

(٢) المقدمة ج١ ص٨

(٣) التاريخ الإسلامي للدولة العربية ج١

لسجايا الأشخاص المنسوبة إليهم، وأخبار التاريخ الإسلامي نقلت عن شهود عيان ذكروها لمن جاءوا بعدهم، وهؤلاء رووها لمن بعدهم. وقد اندس في هؤلاء الرواة أناس من أصحاب الأغراض، زوروا أخباراً على لسان آخرين وروجوها في الكتب إما تقرباً لبعض أهل الدنيا، أو تعصباً لنزعة يحسبونها من الدين.(١)

المراجع والمصادر التي اعتمد عليها مؤلفوا معظم كتب التاريخ المدرسية

اعتمد مؤلفوا الكتب على مراجع ومصادر معادية للإسلام، تسرب إليها الفكر اليهودي، الأمر الذى أدى إلى تشويه الكثير من حقائق الفكر والتاريخ.

ومن الواضح أن المؤلفين قد تتلمذوا على كتب عمداء الإستشراق ذوو الأصول اليهودية، الذين تعلموا اللغة العربية لغير وجه الله ليبعدوا المسلمين عن دينهم، بعد أن كلفتهم الكنيسة بمواجهة الفكر الإسلامي، وصرف أبناء المسلمين عن دينهم الحق، والذين أرَخُوا للعالم من وجهة النظر المادية، متأثرين بثقافتهم المادية، وفلسفتهم المادية، ومتأثرين بالعصبية الدينية، حيث أغفلوا الكثير من القيم التى لا يستقيم تاريخ الحياة،ولا يصح تفسير الحوادث والنتائج بدونها.

تلقف المؤلفون التاريخ من أيدى مؤرخى أوربا الذين جعلوا أوربا فى نظرهم محور العالم ومركزه الدائم، وأهملوا العوامل الأخرى التى أثرت فى تاريخ البشرية.

تناسى المؤلفون أن من نقلوا عنهم قسوس وارساليون ويهود ونصارى متعصبون يضمرون للإسلام العداء والبغضاء، وللأمة الإسلامية السخرية والإستهزاء، ويخونون ويحرفون الكلم عن مواضعه.

ومن هذه المراجع والمصادر التى تعرض التاريخ الإسلامي وغير الإسلامي بمعزل عن المنهج الإسلامي للدراسات التاريخية الذى يقوم على القرن الكريم وسنة النبي ﷺ :

- تاريخ العالم ـ تأليف لفيف من أساتذة الجامعات ـ ترجمة محمد بدران وآخرون.
- معالم تاريخ الإنسانية ـ تأليف عدد من أساتذة الجامعات.

---

(١) القاضى أبى بكر بن العربي ـ العواصم من القواصم ـ (تحقيق وتعليق محب الدين الخطيب) طبعة ١٣٩٠هـ ص ٥٢

- موجز تاريخ العالم ـ تأليف هـ.ج.ولز.
- موسوعة تاريخ العالم ـ إعداد لانجر.
- الموسوعة الأثرية العالمية ـ تأليف ليونارد كوتريل.
- قصة الحضارة ـ تأليف ول ديورانت.
- حضارة مصر والشرق القديم ـ تأليف محمد أنور شكرى وآخرون.
- الحضارات السامية القديمة ـ تأليف س ـ موسكاتى.
- حضارة العرب ـ تأليف جوستاف لوبون.
- الشرق الخالد ـ تأليف عبدالحميد زايد.
- الموسوعة العربية الميسرة ـ تأليف لفيف من أساتذة التاريخ.
- تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ـ حسن إبراهيم حسن
- دائرة المعارف الإسلامية ـ كارل بروكلمان.
- دراسة التاريخ ـ تأليف أرنولد توينبي.
- تاريخ التمدن الإسلامي ـ تأليف جورجى زيدان.(١)

وبالإضافة إلى ما سبق هناك الكثير من المصادر والمراجع غير الموثقة والخطرة التى تحرص على هدم التصور الديني عموما والمعتقد الإسلامي خاصة.

منهج كتابة التاريخ (الذى ينبغى أن يتبع فى دراسة الحضارات القديمة وآثارهم)

- لم يتبع كثير من المؤلفين المنهج العلمي المناسب فى كتابة التاريخ، والذى يسعى إلى تثبيت الفهم الإسلامي الأصيل لتاريخ الأمة المسلمة، والذى يؤرخ فيه للتاريخ الإسلامي من خلال التاريخ الإنساني العام، ويبرز العطاء الحضاري الإسلامي، ومدى اسهاماته فى بناء الحضارات.

- يغيب عن المؤلفين الحكم الشرعي فى المخلفات الحضارية، فلم يزنوا آثار الأمم السابقة ومخلفاتها التاريخية بالميزان الشرعي لتأخذ قيمتها الحقيقية فى ضوء ذلك الميزان العادل، حيث لا مغالاة فى تعظيمها وتقديرها، وتكون قيمتها بقدر الخدمة التى أدتها أو تؤديها للناس، كما لا يجوز تعظيم بُنَاتِها أو تقديسهم.

(١) أنظر د.جمال عبدالهادى ـ د.وفاء محمد رفعت ـ منهج كتابة التاريخ الإسلامي ـ دار الوفاء.

obeikandl.com

ولقد أرشدنا القرآن الكريم إلى المنهج الذى نتبعه فى دراسة الآثار، وعرَّفنا القيمة الحقيقية للآثار بالنظر الصحيح، والإعتبار المثمر الذى يساعد على تربية الفرد المسلم ليكون لبنة صالحه فى بناء المجتمع، وبالسير فى الأرض، والنظر فى سيرنا نظر المستبصر المستفيد الباحث عن أسباب الدمار الذى حل بأصحاب تلك الآثار.قال تعالى:

﴿قُلْ سِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾[1] ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كيفَ كانَ عاقبةُ الَّذِينَ مِنْ قبلِهِم كَانُوا أشدَ مِنهُم قوةً وَآثَارُوا الأرضَ وعَمَرُوهَا أكثرَ مِمَّا عَمَرُوهَا.﴾[2] ﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۞ وَنَعمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ﴾[3]

- أخبرنا القرآن الكريم أنه لما لم يستقم أصحاب الحضارات القديمة على شرع الله ومنهجه، ولم يصدقوا الرسل الذين بعثوا إليهم أهلكهم الله ودمرهم، وأورث أرض بعضهم قوما آخرين، وبعضها بقيت خاوية خربة لتكون آية للناس.

﴿فَكُلاً أَخَذنَا بِذَنبِهِ فَمِنهُم مَّن أَرسَلنَا عَلَيهِ حَاصِباً، وَمِنهُم مَّن أَخَذَتهُ الصَّيحَةُ، وَمِنهُم مَّن خَسفنَا بِهِ الأَرضَ وَمِنهُم مَّن أغرَقنَا.وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظلِمَهُم وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُم يَظلِمون﴾[4]

هذا هو المنهج الذى كان ينبغى أن يتبع فى دراسة الحضارات القديمة وآثارهم حتى يستفيد الطالب ويأخذ العظة والإعتبار بما أصاب أصحاب هذه الآثار من الدمار والهلاك لما أعرضوا عن عبادة الله وتحكيم شريعته.[5]

- تجاهل معظم السادة المؤلفين لكتب التاريخ المدرسية، الهجرات السامية والحامية التى خرجت من شبه الجزيرة العربية كبداية لتعمير الكون، وتناسى كُتَّاب التاريخ القديم عصور آدم، ونوح، ويوسف، وموسى، وغيرهم من الأنبياء والرسل، والدروس المستفادة من دراستها، وسنن الله الثابته حتى تتعظ الأجيال بما حدث للأولين، وسوء عاقبة المكذبين...إلخ.

---

(١) النمل ٦٩.
(٢) الروم ٩.
(٣) الدخان ٢٥-٢٧.
(٤) العنكبوت ٤٠.
(٥) أنظر منهج كتابة التاريخ الإسلامي وتدريسه ـ محمد بن صامل السلمي.

قال تعالى:﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾(١).

لذلك ينبغى أن يعالج المعلم دروس التاريخ من خلال سنن الله الثابتة التى نلمسها من دراسة التاريخ.

ومن سنن الله الثابتة التى نلمسها من دراسة التاريخ:

- سوء عاقبة المكذبين كقوم نوح ولوط وثمود وآل فرعون وغيرهم، وأن ما جرى لهؤلاء المكذبين سيجرى أيضا للمكذبين فى كل عصر ومكان.
- زوال النعم بالمعاصى لقوله تعالى:﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾(٢).
- هلاك الأمم بالترف والفساد والظلم لقوله تعالى:﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾(٣)

إن دراسة التاريخ ليست مجرد أقاصيص تحكى، ولا هى مجرد تسجيل للوقائع والأحداث، إنما يدرس للعبرة والتربية..تربية الأجيال لتكون لبنات صالحه فى بناء أمتها.

يدرس التاريخ لإستخلاص العبرة التربوية من كل العثرات والإنحرافات والإنتكاسات التى أصابت الأمة، وكذلك من أمجاد الأمة وبطولاتها، ولإبراز المواقف الخالدة لتكون قدوة للأجيال المسلمة..تُولد فيها الثقة والإيجابية.

يدرس التاريخ لتبصير الطلاب بما لوطنهم من حضارة عالمية إنسانية عريقة وأمجاد إسلامية تليدة.﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ﴾(٤)

إن القرآن الكريم يوجهنا إلى أن الهدف من ذكر الحوادث التاريخية أو تعليمها، ليس هو التعصب لقوم أو ملة معينة، ولا مجرد التباهى والتفاخر بالآباء والأجداد، ولكن الهدف هو الإعتبار ومعرفة سنة الله فى إهلاك المفسدين بسبب إفسادهم، ومعرفة سنة الله

(١) ال عمران ١٣٧-١٣٨.
(٢) الأنفال ٥٣.
(٣) د.جمال عبدالهادى وأخرون ـ التاريخ بين الحقيقة والتضليل ـ دار الوفاء.
(٤) يوسف ١١١.

فى أخذ الحكام والمترفين والأغنياء بسبب ظلمهم و فسقهم عن أمر ربهم وشريعته.﴿سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾[1]

من الأخطاء التاريخية فى الكتب المدرسية

أقسام التاريخ الإنساني

التقسيم الأوربي للتاريخ

من الأخطاء التاريخية الشائعة فى الكتب المدرسية وغيرها، تقسيم التاريخ الإنساني حسب المفهوم الأوربي الذى يرتبط بظروف أوربا وموقفها من الكنيسة، فأهدرت بذلك جميع الحقائق التاريخية.

ينقسم التاريخ حسب المفهوم الأوربي إلى ثلاثة عصور:

(١) التار يخ القديم ويبدأ من معرفة الكتابة سنة ٣٢٠ قبل الميلاد، وينتهى بسقوط روما سنة ٤٧٦م. على أيدى القوط الغربيين وإندفاع البرابرة الجرمان وغيرهم يدمرون ويخربون العالم الروماني.

(٢) تاريخ القرون الوسطى ويبدأ من سقوط روما سنة ٤٧٦م. فى يد القوط إلى تاريخ فتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣م./٨٥٧ هـ. على يد السلطان محمد الثانى الملقب بالفاتح.

(٣) التاريخ الحديث ويبدأ من سقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣م حتى اليوم، وتقسم هذه الفترة إلى تاريخ حديث ينتهى بقيام الثورة الفرنسية سنة ١٨٣٠م/١١٩٣ هـ، وتاريخ معاصر يبدأ من الثورة الفرنسية إلى يومنا.

ويترتب على هذا التقسيم إغفال فترة أرسل الله تعالى فيها ر سلاً وأنبياء، وكأنه لا تاريخ لهم !!

كما أن اصطلاح القرون الوسطى يعنى فى نظرهم فترة الظلام والجهل لسيادة الكنيسة وسيطرتها على أوربا، بينما هذا الجهل، وهذه المظالم أمر يخص أوربا فقط حيث انتشر فيها الجهل والخرافات والأساطير الدينية، وابتدع البابوات صكوك الغفران التى

(١) الفتح ٢٣.

يزعم رجال الدين بموجبها محوهم لذنوب من أسر إليهم بها، وصكوك الحرمان التى كانت تصدر ضد الخارجين على البابا..الحرمان من الجنة ومن رحمة الله !!

إن سيادة المفهوم الأوربي للعالم أجمع ودمغ هذه الفترة فى العالم بالظلام والجمود والتأخر لأن أوربا كانت متأخرة ومظلمة وجامدة أمر غير مقبول وخطأ فاحش وقع فيه كل من أخذ بهذا التقسيم ولقنه طلابنا، ففى هذه الفترة ظهر الإسلام، وشهد العالم الإسلامي قيام دولة إسلامية قوية تظللها حضارة عريقة شاعت شهرتها فى جميع أنحاء المعمورة.

كانت العواصم الإسلامية بغداد والقاهرة وقرطبة ودمشق وغيرها فى هذه الفترة مراكز للعلوم والآداب ومراكز اشعاع وحضارة، تشع بنور الفكر والعلم، وتضئ دياجير الجهل والتأخر. بينما كانت أوربا تغرق وسط بحر الجمود والعزلة والتخلف بسبب الضياع والفقر والظلم الإجتماعي.

اشتهر المسلمون فى هذه الفترة بتفوقهم فى الفلك والجغرافيا فاخترعوا الآلات التى ساعدتهم فى دراسة النجوم وقياس المسافات بين الأجرام السماوية، وفى الفيزياء والكيمياء والطب والرياضيات وغيرها.

إذا كانت العصور الوسطى عصورا مظلمة فى أوربا، فهى عصور نور وإزدهار فى العالم الإسلامي مشرقه ومغربه..

كان إختيار سنتي ١٤٥٣،٤٧٦م. بالنسبة لمؤرخى أوربا، ذلك لأهمية هاتين السنتين فى تاريخ القارة الأوربية ونظامها الكنسي.

كيف يعالج الخلل :

فى معالجة الخلل فى التقسيم الأوربي للتريخ ـ الذى أخذ به كتاب التاريخ، يقوم المعلم:

(١) فى عصور ما قبل التاريخ يعطى المعلم نبذة عن بدء الخلق ﴿الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ والأَرضَ ومَا بَينَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثـم استَوىَ عَلَى العَرشِ﴾[1] وأن الله تعالى خلق

(١) الفرقان ٥٩.

الكون مسلماً يعبد الله تعالى وحده لا شريك له.

(٢) يتناول عصر آدم عليه السلام..مرحلة خلق آدم كأول مخلوق بشري خلقه الله تعالى بيديه من تراب الأرض ونفخ فيه من روحه، وأصبح بشراً سوياً مكرماً وأمر الملائكة بالسجود له، وسخر له الأرض وعلمه كل شئ، وحماه من غوائل الطبيعة.

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُم عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[١] وأن الله تعالى استخلف آدم فى الأرض بعد أن ارتضى له الإسلام ديناً.

(٣) يشير المعلم إلى :

- عصر ما بين آدم ونوح ومدته عشرة قرون كانت كلها على الإسلام.
- عصر نوح عليه السلام وأن الله تعالى بعث نوحا عليه السلام أول رسول إلى أهل الأرض يحمل منهج الله عزوجل لإعادة الناس إلى الإسلام دينا، بعد أن ضلوا وعبدوا الطاغوت.

وهنا نتناول الدروس المستفادة من حادثة الطوفان فى ضوء القرآن الكريم.

- عصور ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام: وما أصاب الأمة من خلل وإنحرافات فى توجههم بالعبادة لغير الله عزوجل وتأليههم للحكام والزعماء، وعدم الإنضباط مع نظام الله وشرعه.
- عصور إبراهيم ولوط عليهما السلام: ويكون ذلك من خلال المراجع الإسلامية القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة مع تبيان الدروس المستفادة.
- عصور يوسف وشعيب وموسى عليهم السلام: ويكون ذلك من خلال كتب السيرة والحديث الشريف والمصادر والمراجع الإسلامية الموثقة[٢].

---

(١) البقرة ٣١.

(٢) أنظر د.جمال عبدالهادى، د.رفاه محمد رفعت ـ الإسلام دين الله فى الأرض وفى السماء ـ تاريخ الأمة الواحدة.

أصحاب الجَملْ وعلى رضي الله عنهم

تعد واقعة الجمل من الوقائع التاريخية الهامة التى وقع للمؤرخين والمفسرين فيها كثير من المغالطات لاعتمادهم فقط على مجرد النقل.

أوردوا أن صحابة رسول الله ﷺ ، طلحة والزبير، وأم المؤمنين عائشة ـ ﷺ ـ قد خرجوا لمحاربة أمير المؤمنين على بن أبى طالب وخلعه لتستره على قتل عثمان بن عفان.

قال القاضى الأندلسي بن العربي :

"أما خروجهم إلى البصرة فصحيح لا إشكال فيه..ولكن لأى شئ خرجوا ؟..خرجوا لجمع طوائف المسلمين، وردهم إلى قانون واحد حتى لا يضطربوا فيقتتلوا.

وأما خلعهم لعلى فباطل، لأن الخلع لا يكون إلا بنظر من الجميع، ولا يكون الخلع إلا بعد الإثبات والبيان وأما خروجهم فى أمر قتلة عثمان فيضعف لأن الأصل قبله تأليف الكلمة، ويمكن أن يجتمع الأمران"(١)

يؤكد ذلك ما جاء فى رد أم المؤمنين على عمران بن حصين، وأبو الأسود الدؤلى، عندما استخبراها عن قدومها فقالت :"خرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم، وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى إصلاح هذا وقرأت قول الله تعالى:﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾(٢) نهض فى الإصلاح ممن أمر الله عزوجل، وأمر رسول الله ﷺ الصغير والكبير والذكر والأنثى..إننا إلى معروف نأمركم به ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه ونحثكم على تغييره"(٣)

واستجاب لهم على رضى الله عنه ، ولكن الذين جنوا على الاسلام أول مرة بالبغى على عثمان، ومثل ذلك قال طلحة والزبير:"كانا يريدان جمع الكلمة للنظر فى أمر قتلة عثمان، كانوا أعداءً لله مرة أخرى بإنشاب القتال بين هذين الفريقين من المسلمين"

---

(١) أبى بكر بن العربي ـ العواصم من القواصم ص ١٥٠ـ ١٥٢ طبعة الرياض.
(٢) النساء ١١٤.
(٣) الشيخ محمد الخضرى بك ـ تاريخ الأمم الإسلاميه ص ٢٠٨ـ دار الفكر اللبناني طبعة ١٩٩٤ م.

كان الصحابي الجليل القعقاع بن عمرو التميمي، قد قام بين الفريقين بالوساطة الحكيمة، واستجاب له أصحاب الجمل وأذعن على لذلك، وبعث إلى.طلحة والزبير، واطمأنت النفوس وسكنت، ولكن قتلة عثمان من السبئيين اجتمعوا على إنشاب الحرب في السربين على وأخويه الزبير وطلحة، فظن أصحاب الجمل أن علياً غدر بهم، وظن على أن أخوانه غدروا به، وكل منهم أتقى لله من أن يفعل ذلك في الجاهلية، فكيف بعد أن بلغوا أعلى المنازل من أخلاق القرآن![1]

وعن إتهامهم علياً بقتل عثمان، قال بن العربي: "لئن اتهم على بقتل عثمان فليس في المدينة أجد من الصحابة إلا وهو متهم به".

حين قالت عائشة أم المؤمنين: يا أيها الناس العنوا قتلة عثمان وأشياعهم، وأقبلت تدعو، وضج أهل البصرة بالدعاء، وسمع على الدعاء فقال: ما هذه الضجة؟ فقالوا: عائشة تدعو ويدعو الناس معها على قتلة عثمان وأشياعهم.فأقبل على يدعو وهو يقول: "اللهم العن قتلة عثمان وأشياعهم".

نقل الحافظ بن عساكر قول الشعبي: رأى على بن أبى طالب طلحة ملقى في بعض الأودية، فنزل فمسح التراب عن وجهه ثم قال: "عزيز عليٌ أبا محمد أن أراك مجدلا في الأودية وتحت نجوم السماءإلى الله أشكو عجرى وبجرى (أى سرائرى وأحزانى التى تجول فى جوفى) وقال: ليتنى مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة. وقال مولى طلحة: دخلت أنا وعمران بن طلحة على عليّ بعد الجمل، فرحب بعمران وأدناه وقال: إنى لأرجو أن يجعلنى الله وأباك من الذين قال فيهم﴿وَنَزَعنَا مَا فِى قُلوبِهِم مِن غِلٍ إخوَانَاً عَلَى سُرَرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾[2]

كان الفريقان يطلبان التفاهم وجمع الكلمة، أما الباغى فهم قتلة عثمان، وقد قتلهم الله.

اليهود وبذور الفتنة بين المسلمين

حينما أظهر اليهود العداء للرسول ﷺ، ولدينه الحنيف، وحملوا السلاح ضد الإسلام

(١) الشيخ محب الدين الخطيب ـ حاشية العواصم من القواصم ص١٥٠ ـ١٥٧.
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٥٩

والمسلمين، وانتهى ذلك بهزيمتهم واقصائهم عن شبه الجزيرة العربية، ازداد حقدهم، ولم يكفوا رغم هزيمتهم العسكرية، عن التآمر وبث الفتن فى سبيل إضعاف الإسلام وتمزيق شمل المسلمين.

لجأ اليهود إلى التظاهر بالإسلام ليتسنى لهم بث السموم وزرع بذور الشك والريبة والتضليل والغش بين المسلمين متسترين بثوب الإسلام المتسامح.

ظهرت أصابع الإجرام اليهودي فى قتل الخليفة الثانى عمر بن الخطاب ﷺ، حين تظاهر كعب الأحبار بالإخلاص للخليفة ونقل إليه نبوءات توراتيه كانبه عن مقتله بعد ثلاثة أيام[1]. مما يؤكد أنه كان على علم بمؤامرة الهرمزان وأبى لؤلؤة، وعلى علم بموعد التنفيذ، وتظاهر أن التوراة تنبئ عن مقتل الخليفة ليبعد الشك عن نفسه فيما لو اتسع التحقيق وكشفت المؤامرة. وحين نفذت الجريمة اكتفى عبدالله بن عمر بأخذ الثأر من الهرمزان، وقتل أبو لؤلؤة منفذ الجريمة نفسه، ولم يجر تحقيق بين الفرس واليهود والنصارى الذين كانوا حاقدين على العرب عامة وعلى الخليفة عمر بن الخطاب خاصة. ونجا كعب الأحبار بينما أصيب الإسلام بأول ثلمة لم ترتق حتى يومنا هذا.[2]

وفى عهد الخليفة عثمان بن عفان ﷺ، حاكت أصابع اليهود أخطر فتنة أصيب بها الإسلام والمسلمون، ما زالت آثارها باقية إلى يومنا هذا، تلك هى فتنة غلاة الشيعة التى خلقها وتزعها وقادها اليهودي عبدالله بن سبأ الملقب بابن السوداء.وابن سبأ من يهود اليمن تظاهر بالإسلام فى خلافة عثمان بن عفان، وأخذ ينتقل من بلد إسلامي لآخر، باثاً ضلالاته وشكوكه، حتى وصل إلى مصر ، وتحدث فى الرجعة قائلا للناس: كيف تؤمنون برجعة المسيح ولا تؤمنون برجعة نبيكم محمد. وكيف تسكتون على إغتصاب الخلافة من آل البيت...[3]؟

وقاد ابن سبأ حملة التشهير بالخليفة عثمان، وبث دعاته، وأسس جمعياته السريه التى أخذت تنفث سموم الفتنة فى كل بقعة من ديار الإسلام، وحين أتم استعداده، نفذ المتآمرون معه جريمة قتل الخليفة عثمان فى أسلوب وحشي نابع من تعاليم التلمود

(١) عبدالله التل ـ جذور البلاء ـ دار الإرشاد ـ بيروت طبعة ١٩٧١ ـ نقلا عن أبو الفرج عبدالرحمن الجوزى ـ سيرة عمر بن الخطاب ـ الدار القوميه د.ت ص ١٤٦

(٢) المصدر السابق نقلا عن محمد حسين هيكل ـ الفاروق عمر ـ مطبعة مصر ١٣٦٤ ـ ج٢ص ٣١٩

(٣) نفس المصدر ـ نقلا عن الشيخ محمد الخضري ـ تاريخ الأمم الإسلاميه ـ المكتبة التجارية ج٣ ص ٥٣

اليهودية، وأخذ بن سبأ يدعو إلى تأليه الإمام علي، وحين قتل الإمام أنكر بن سبأ ذلك وزعم أن علياً لم يقتل وأنه حي وأن فيه الجزء الإلهي، وأنه هو الذي يجيئ في السحاب، وأن الرعد صوته والبرق سوطه ولم تكن دعوة التأليه هذه بالشئ الجديد عند اليهود، فقد كانوا واضعي خطة تأليه المسيح عليه السلام حين عجزوا عن القضاء على المسيحية، فجعلوها تقوم على أسس التثليث، وغدت محنة على بأصحابه كمحنة المسيح، وكلا المحنتين من صنع اليهود.(١)

نشأة الحركات الهدامة

في الوقت الذي أخفق فيه اليهود في زرع بذور الفتنة بين الأوس والخزرج زمن رسول الله ﷺ، نجحوا في زرع بذور الفتنة بين المسلمين منذ عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، واستعر لهيبها بعد مقتل عثمان وعلى والحسين بن علي شهيد كربلاء.

ولم يكن اليهود ليظهروا على المسرح، بعد أن هدم الإسلام كيانهم، وقضى على وجودهم في الحجاز ، بل عملوا من وراء ستار منفذين لخطط رئيسهم عبدالله بن سبأ، وبعد أن نجحت الحركة السبأية في وضع أسس الفتنة بين المسلمين تشعب عنها عدد من الحركات الهدامة التي أسهمت في إضعاف المسلمين وجلبت عليهم الويلات والمصائب.

كان من أخطر تلك الحركات "**الإسماعيلية**"، التي بدأت كجمعية سريه على غرار الجمعيات اليهودية السرية، لا يعرف أغراضها ودستورها إلا زعماؤها الأقلون، وقادة الأفكار المقربون إلى رئيسها، وكان أول مؤسس لها هو اليهودي عبد الله بن ميمون القداح، ونسب هذا اليهودي حركته إلى إسماعيل بن جعفر الصادق(٢)، الذي توفي عام ١٤٧ هـ وانقسمت الشيعة من بعده إلى فرقتين : الفرقة الأولى ويتبعها الأكثرية العظمى من المذهب الجعفري ، وقد نادوا بإمامة موسى الكاظم بن جعفر الصادق وسلسلو الإمامه من بعده حتى الإمام الثاني عشر وهو محمد بن الحسن العسكري الذي قيل أنه دخل سردابا في مدينة سامراء، وأنه ما زال حيا، وأنه سيخرج من سردابه يوم القيامة باسم المهدى المنتظر، ليملأ الدنيا عدلا ورحمة(٣). والفرقة الثانية هي الإسماعيلية ونادى

(١) الامام محمد بن حزم الأندلسي الظاهري ـ ٤٥٦ هـ ـ الملل والأهواء والنحل ـ مكتبة المثنى ـ بغداد.
(٢) مصطفى الحاج ـ بعض الحركات الفكرية في الإسلام ـ بيروت دت ص ٧٦
(٣) د.محمد كامل حسين ـ طائفة الإسماعيلية ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٩ ص ١١.

أتباعها بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق.بيد أن الفرق بين الطائفتين كبير وخطير، ذلك بأن الفرقه الأولى أو الطائفة الشيعية الاثنى عشريه كانت وما زالت إحدى فرق الإسلام الكبرى، لها آداب وفقه وعلوم إسلامية لا تختلف كثيرا عن السنة، ولا تعترف هذه الطائفة الإسلامية بعبدالله بن سبأ وتلعنه وتبرأ منه، كما تَبْرأ من غلاة الشيعة الذين اتبعوا بدع اليهود وأساليبهم الإجرامية فى الدس على الإسلام والمسلمين[1].

وقد اختلف المؤرخون فى شرح حقيقة تعاليم الإسماعيلية فمنهم من زج بها فى زمرة المادبين والزنادقة، ومنهم من يحشرهم فى جماعة زرادشت والمجوس الذين كانوا وما زالوا يسعوا لإحياء دين فارس القديم، ومنهم من ينسبهم إلى السبأيين، ومنهم من يصفهم بالإنحلال والدعوة للإباحية والإلحاد، ومنهم من يأخذ عنهم تحليل المحرمات وهدم القيم الأخلاقية والآداب المتبعة فى كل عصر، وأبشع ما ينسب هو نكاح البنات والأخوات وإباحة اللواط وشرب الخمر والكذب والنفاق والتضليل، الخداع والتقية والحقد على الإسلام والعرب، وهى صفات معهودة فى اليهود[2] والدليل على أثر اليهود فى حركات الإسماعيلية هى ترتيبات الدعوة وتنظيماتها على غرار تنظيمات الماسونية اليهودية[3].والتى تتمثل فى الإمام مصدر كل قانون وتشريع، والحجة أو الباب نائب الإمام ومستودع أسراره، وداعى الدعاة، وداعى البلاغ، والنقيب، والمأذون، والمحصور، والجناح الأيمن، والجناح الأيسر، والمكاسر، والمكالب، والمستجيب[4].

وتعتبر الحركة الإسماعيلية نكبة من النكبات التى ألمت بالإسلام، لما تم على يد أتباعها من تشويه لحقيقة الإسلام، وإعطاء صورة بشعة عنه أمام العالم، مما سهل لدعاية اليهود فى العالم النيل من الإسلام العظيم، وتاريخ إمام الطائفة آغاخان الثالث ١٨٧٧-١٩٥٧ أقوى برهان على خطر الحركة الإسماعيلية، وكفرها وبعدها عن الإسلام. فقد كان آغاخان أسوأ مثل فحياته وقصص غرامياته وزوجاته وفسقه ووزنه تارة بالذهب وبالماس تارة أخرى. كانت مادة دسمة لصحافة العالم اليهوديه طوال نصف قرن. وأتباع آغاخان

(١) الامام محمد الحسين آل كاشف الغطاء ـ أصل الشيعة وأصولها ـ دار البحار ـ بيروت ١٩٦٠ ص ٨٢
(٢) مصطفى الحاج نفس المرجع السابق
(٣) عارف تامر ـ القرامطة ـ دار الكتاب العربي بيروت د.ت ص ٧٩-٨٣
(٤) محمد كامل حسين ـ نفس المصدر السابق ص ١٢٦

يشاركونه المسئولية فى تشويه وجه الإسلام الصحيح. فقد كانوا يؤلهونه، ويعتقدون أن الخمر حين تدخل فى جوفه تتحول إلى ماء زمزم.

وحين سئل آغاخان مرة من قبل صديق له، كيف يسمح ـ وهو المثقف ـ لأتباعه أن يؤلهوه، قهقه طويلا حتى دمعت عيناه وقال: "إن القوم فى الهند يعبدون البقرة، الستُ خيراً من البقرة ..؟"

القرامطة

انجبت الإسماعيلية حركة هدامة أخرى هى حركة القرامطة التى قامت لهدم الخلافة العباسية وانتشر أتباعها فى العراق واليمن والبحرين وفارس.

كان أخطر فئة منهم **قرامطة البحرين** الذين قاد رئيسهم سليمان بن طاهر جيشاً وغزا مكة المكرمة ٣١٧هـ/٩٣٠م وهتك حرمة بيت الله الحرام، وفتك بالحجاج الأمنين وقتل منهم ما يزيد على ثلاثين ألفا،ونهب الأموال، وردم بئر زمزم واقتلع الحجر الأسود ونقله مع قواته المنسحبة للجنوب[1].

كانت الحركة القرمطية عامل تخريب فى قواعد الإسلام،تظاهرت بأنها تهدف إلى خدمة الطبقة الفقيرة، فخففت عنها أعباء المعيشة وفى الوقت نفسه خففت منها أعباء الدين ورفعت فروض الصلاة والصوم والزكاة وألغت شعائر الإسلام.

لقد كان الأصبع اليهودي فى حركة القرامطة متسترا، إلى أن كشفه الخليفة المعتضد حين ضيق الخناق على عزرا بن صمونيل كبير تجار اليهود فى بغداد. واعترف عزرا بأن اليهود قد مدوا يد العون المالي إلى القرامطة، وحركات بابك الخرمي والسبئيين وميمون القداح، واعترف كذلك بمساعدة اليهود السرية للروم، رغم أن تسامح المسلمين أيام العباسيين قد جلب على اليهود النعيم والرخاء، وأنهم أثروا واكتنزوا الأموال من التجارة والربا. ومع كل ذلك فإنهم عمدوا إلى مساندة كل حركة تخريبيه تقوم فى ديار الإسلام.

الدولة الفاطمية

استمرت فتن اليهود وأصابعهم تلعب بالإسلام، حتى أن أغلب مؤرخى المسلمين

(١) مصطفى الحاج ـ المصدر السابق ص ١١٨

السُنّة قد أجمعوا على أن عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب كان يهودياً، ودخل المغرب وتسمى بعبيدالله، وأدّعَى أنه شريفٌ علويٌ فاطميٌ وقال عن نفسه أنه المهدي[1].

ويشير تاريخ الفاطميين إلى أثر اليهود التوراتي التلمودي فى تعاليمهم وسلوكهم وتأليه ملوكهم، كما حدث للحاكم بأمر الله الذى أدّعى الربوبية وصار قوم من اتباعه يقولون: يا واحدنا يا أحدنا، يا محيى، يا مميت[2]

وتنطق الرسالة الرابعة عشرة من رسائل الحاكم بأمر الله بالكفر الصراح وتأليه الحاكم، وهذه الرسائل هى التى حلت عند الفطميين محل القرآن والسنة، ومما جاء فى تلك الرسالة:

سبحانك يا مبدع الأشياء، يا مخترع العالمين... يا من لا تلحقه صفة وليس له صفة شهدت وآمنت وأيقنت بأنك الله المبدع العزيز الواحد الأحد، وأنك بارى لا بارى لك، وخالق لا ضد لك، وقادر لا مقدور عليك، وحاكم لا محكوم عليك.. يا أرحم الراحمين، لا أصرف ذاتى إلى غيرك، تائب إليك معترف بألوهيتك، متبرئ من كل عدو لك، لا شريك لك، ولا دافع لأمرك، تجاوز عنى واغفر ذنبى.. لا إله غيرك ولا معبود سواك[3].

(١) الامام الحافظ عمادالدين اسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي ٧٧٤ هـ د.ت، ج١٢ ص ٢١٧.
(٢) الجورى ـ المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ط الهند ١٣٥٨ ج٧ ص ٢٩٨.
(٣) د.حسن إبراهيم حسن ـ تاريخ الدولة الفاطمية ـ مكتبة النهضة ١٩٦٤ ص ٣٦٦.

معاوية بن أبى سفيان ﷺ

وبنو أمية

جذور البلاء والحقد اليهودى

قاوم اليهود الإسلام وانتشاره منذ بدء الدعوة الإسلامية، فالرسول بعد هجرته إلى المدينة المنورة عقد مع اليهود اتفاقا عاماً ضمنَ لليهود فيه الحرية فى شئون عبادتهم وأحوالهم الشخصية، وأشرك اليهود فى القيام بتكاليف الدفاع عن كيان المدينة السياسي والحربي.. إلا أن اليهود ـ وقد راعهم ـ إنتشار الإسلام تنكروا لهذا الإتفاق، وأخذوا يدسون السموم ويحاولون التفرقة بين صفوف الأنصار والمهاجرين من جهة، وبين الأنصار ـ خزرجهم وأوسهم ـ من جهة أخرى، ولم يكتفوا بهذا بل أخذوا يحاولون إثارة الشكوك والريب حول الدعوة الإسلامية الناشئة.

وتطور العداء بين الطرفين إلى أن أدى إلى التصادم السافر الذىْ انتهى بانتصار الإسلام وجلاء قسم من اليهود عن المدينة المنورة ولكن الباقين منهم فيها ألبوا مشركى العرب من قريش وغطفان وغيرهم على رسول الله ﷺ، فحاصر هؤلاء المدينة المنورة، إلا أن الرحمة الإلهية قد أدركت المسلمين فانتصروا على أعدائهم فلم تقم بعد ذلك لليهود قائمة فى المدينة. وتلا ذلك فتح القرى اليهودية فى شمالي الحجاز ثم زحف الإسلام حتى خضعت شبه الجزيرة العربية.

وفى عصر الخلفاء الراشدين، لما رأت اليهودية أن الإسلام قد انتشر وتمكن من القلوب، وأن لا قبل لها بمقاومته علانية، اعتنق بعض خبثائها الإسلام بغية الدس وأشهر هؤلاء كعب الأحبار الذى أخذ يحث المسلمين بالإسرائيليات، إلا أن حزم الخليفة عمر ﷺ أوقفه عند حده.

ولما بدأت الفتن تتحرك بدأ ابن سبأ اليهودي ينفث سمومه فنشأت السبأيه الهدامة التى هى أولى الحركات اليهودية الهدامة فى الإسلام، فقاومها الخليفة علي ﷺ أشد مقاومة حتى أنه أحرق بعض زعمائها بالنار[1].

(١) جواد رفعت أتلخان ـ أسرار الماسونيه ـ ص ١٥ـ مؤسسة دار العلوم.

وفى العصر العباسي انفسح المجال لدعاة الهدم أمثال القرامطة والحشاشين والراوندية وغيرهم، كى يعملوا بمعاولهم فى هدم كيان الإسلام وتحريف قواعده وأحكامه، إلا أن الإسلام قد خرج ظافراً فى النهاية من كل هذه المعامع.

ولما انتقلت الخلافة إلى الأتراك العثمانيين لم يكن لليهودية أى نفوذ فى أوائل عصورها، ولكن لما تغيرت الأمور واضطربت أحوال الدولة، بدأ النفوذ اليهودي يتسرب إلى أخطر مرافق الدولة كالجيش والمعارف. واستغلت اليهودية الماكرة دعاة الإصلاح العربي لتنفيذ مآربها وسجلت انتصاراً باهراً بخلع السلطان عبدالحميد الثانى الذى كان يعارض بشدة وعنف هجرة اليهود إلى فلسطين وتمكنهم فيها، ولم تكتف اليهوديه وربيبتها الماسونية بهذا، لأن الدولة لا تزال قائمة والصبغة الإسلامية هى الغالبة عليها، فدفعوا بها إلى حرب مزقت أوصالها شرَ تمزيق وثم تعاونوا مع القوى الإستعمارية لإلغاء الخلافة الإسلامية، فتم لها ذلك.

معاوية ﷺ فى الميزان

الكثيرين ممن عانوا كتابة التاريخ ولم يفقهوا الإسلام، ومن أصحاب الأغراض والبدع أعداء العرب والإسلام والإنسانية، طعنو فى بنى أمية من أولهم إلى آخرهم، حتى لم يتركوا أحدا من ملوكهم إلا تلبوه بإفتراءات يتنزه عنها سوقة الناس وأراذلهم[1].إذا نظر إلى ذلك مما كتبوه ــ المعتدل الخالى القلب ــ افتتن بها وحملها على محمل الصدق فيتشرب له كره وبغض أولئك الأسلاف الطاهرين لخلو ذهنه عن حب أو بغض لهم، فتصادف هذه الأخبار قلبا خاليا فتتمكن فيه، وتشيع بين الناس.

من ذلك ما يتلبونه به معاوية ﷺ وبنى أميه ويطعنونهم به، من بعض أمير المؤمنين على بن أبى طالب وتعداد نقائصه وسبه ولعنه على المنبر.

ذكر الحافظ فى كتابه البيان والتبيين أن النبي ﷺ قال فى معاوية:"اللهم علمه الكتاب والحساب، وقه العذاب"

يقول الإمام بن كثير رحمه الله: انعقدت الكلمه على معاوية وأجمعت الرعايا على بيعته فى سنة إحدى وأربعين، فلم يزل بالأمر مستقلا إلى سنة وفاته، والجهاد فى بلاد

(١) د.محمد أبواليسر عابدين ــ أغالبط المؤرخين ــ مكتبة الغزالى ــ دمشق.

العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحةٍ وعدل، وصفحٍ وعفو.

وذكر الحلبي في سيرته في فتوح مكة قال: وكان من جملة من بايعه ﷺ على الإسلام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فعن معاوية رضي الله عنه:

لما كان عام الحديبية وقع الإسلام في قلبي فذكرت ذلك لأمي فقالت إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت. فأسلمت وأخفيت إسلامي، فقال لي يوما أبو سفيان وكأنه شعرُ بإسلامي أخوك خيرٌ منك هو على ديني، فلما كان عام الفتح أظهرت إسلامي، ولقيته ﷺ فرحب بي وكتبت له أي بعد أن استشار فيه جبريل عليه السلام فقال : استكتبه فإنه أمين، وأردفه النبي ﷺ يوما خلفه فقال: "ما يليني منك" قلت بطني.قال "اللهم املأه حلماً وعلماً"، وعن العرباض بن سارية ﷺ قال: سمعت النبي ﷺ يقول لمعاوية: "اللهم علمه الكتاب والحساب وقه العذاب" زاد في رواية "ومكن له في البلاد".وعن بعض الصحابة أنه سمع النبي ﷺ يدعو لمعاوية يقول: "اللهم اجعله هادياً مهدياً، واهده واهدبه، ولا تعذبه" وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوماً لمعاوية: "يا معاوية أنت مني وأنا منك، لتزاحمني على باب الجنة كهاتين" وأشار بأصبعيه الوسطى والتي تليها[1].

يقول محمد منير الغضبان

لم تنل شخصية في تاريخنا الإسلامي، ومن الرعيل الأول من الصحابة، الذين تربوا على يدي رسول الله ﷺ، وعاشوا وحي السماء، من التشويه والدس والإفتراء ما نال معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما.. لقد أصبح كثير من المعلومات ثابتة في أذهان الناس لا تقبل الشك ولا تقبل الجدل، لا تتناسب أبدا والمستوى اللائق بصحابة رسول الله ﷺ.وصورة معاوية في أذهان الناس أنه طالب سلطة، وسياسي بارع،ونهاز فرص، لا يرعوى عن شئ في سبيل الوصول إلى الحكم. صارع من أجل السلطة، وسعى إلى قتل عشرات الألوف من الناس لكي يصل إلى الخلافة.

وهذه الصورة تتنافى مع حس المسلم وفطرته، لكنه لا يجد لها بديلا.فكتب التاريخ تذكر ذلك !![2]

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٠:١٠١

(٢) محمد منير الغضبان ـ أعلام المسلمين ـ معاوية بن أبي سفيان صحابي كبير وملك مجاهد ـ دار القلم ـ

ذكر الإمام ابن كثير: قال بعضهم في معاوية وعمر بن عبدالعزيز: ليوم شهده معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبدالعزيز (خامس الخلفاء الراشدين) وأهل بيته.

وذكر بن خلكان في تاريخه في ترجمة عبدالله بن المبارك ﷺ، قال: سئل عبدالله بن المبارك أيهما أفضل معاوية بن أبي سفيان، أم عمر بن عبدالعزيز .فقال: والله إن الغبار الذي دخل في أنف معاوية مع رسول الله ﷺ أفضل من عمر ألف مرة، صلى معاوية خلف رسول الله ﷺ فقال سمع الله لمن حمده، فقال معاوية ربنا ولك الحمد، فما بعد هذا ؟

وما أحسن ما نقله الصفوري في نزهة المجالس قال:قال عمر بن عبدالعزيز : رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، فأخذ على معاوية رضي الله عنهما فأدخله بيتاً، ثم خرج فقال: حكم لي ورب الكعبة، ثم خرج معاوية وهو يقول: غفر لي ورب الكعبة[1].

كان سبب تمسك معاوية بإمارة الشام، وعدم نزوله عنها وتحيله للبقاء فيها، بما اجتهد فيه أنه أقل إثما من نزوله عنها، حيث ظن وجوب بقائه فيها لما يعلمه من دخائل الرومان، وتحيلهم للعودة إلى البلاد التي انسلخت من ملكهم، فكان معاوية يظن نفسه الحصن المنيع والسد الذريع الذي يقف بوجه تيارهم وكيدهم الفظيع.

وكان سبب تمسك على بعزله وتصميمه رضي الله عنهما، هو تباين ما بين مسلكيهما في الحكمة، فورع علي وزهده وكونه على سيرة العمرين، ينافي لين معاوية وسياسته وحلمه وبذله للمال في إصلاح الدولة حسب تطور الوقت بما تقتضيه لمصلحة.

أدى معاوية اجتهاده أن يبقى في إمارة الشام للدفاع عن الإسلام ورد عادية الروم.قال بن حجر في الإصابة: وولاه عمر الشام بعد أخيه يزيد بن أبي سفيان، وأقره عثمان، ثم استمر فلم يبايع علياً، ثم حاربه واستقل بالشام، ثم أضاف إليها مصر، ثم تسمى بالخلافة بعد الحكمين ثم استقل لما صالح الحسن بن علي، واجتمع عليه الناس فسمى ذلك العام عام الجماعة. وقال في الإصابة:

دمشق.

(١) أبواليسر عابدين ـ نفس المصدر السابق ص ١٠٤.

أنه لما بايع أهل العراق الحسن ﷺ، وسار بهم إلى أهل الشام، تراسل مع معاوية وجمع رؤوس أهل العراق وقال: إنكم قد بايعتموني على أن تسالموا من سالمني، وتحاربوا من حاربني وأني قد بايعت معاوية فاسمعوا له وأطيعوا. أعطاه معاوية عهدا إن حدث به حدث والحسن حي، ليجعلن هذا الأمر إليه، فكان أصحاب الحسن يقولون له يا عار المؤمنين، فيقول: العار خير من النار، ومات الحسن قبل معاوية، وما فعله الحسن كان من معجزة الرسول ﷺ.

أخرج البخاري في صحيحه في كتاب الفتن، في باب قول النبي ﷺ للحسن بن علي رضي الله عنهما: "أن ابني هذا لسيد ولعل الله أن يصلح به فئتين من المسلمين".

ذكر المؤرخ بن خلدون في المقدمة في فصل انقلاب الخلافة إلى الملك:

"لما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية، وهي مقتضى العصبية، كان طريقهم فيها الحق والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض دنيوي أو لإيثار باطل أو لاستشعار حقد كما قد يتوهمه متوهم وينزع إليه ملحد، وإنما اختلف إجتهادهم في الحق، وسفه كل واحد نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه، وإن كان المصيب علياً، فلم يكن معاوية قائماً فيها بقصد الباطل، إنما قصد الحق وأخطأ، والكل في مقاصدهم على حق..."[1].

بيعة يزيد بن معاوية رحمه الله

قال المؤرخ العربي المسلم عبدالرحمن بن خلدون في مقدمته:

عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما، إلى يزيد بن معاوية، خوفا من افتراق الكلمة، وما كان لبني أمية أن ترضى لتسليم الأمر إلى من سواهم، فلو قد عهد إلى غيره اختلفوا عليه، مع أن ظنهم كان صالحا به، ولا يرتاب أحد في ذلك، ولا يظن بمعاوية غيره، فلم يكن ليعهد إليه، وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق، حاشا لله لمعاوية من ذلك.

وكذلك كان مروان بن الحكم وابنه، وإن كانوا ملوكا فلم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة والبغي، إنما كانوا متحرين لمقاصد الحق جهدهم، إلا في ضرورة تحملهم على بعضها، مثل خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد، يشهد

(1) نفس المصدر السابق ص ١٠٩، ١١٠.

لذلك ما كانوا عليه من الإتباع والإقتداء، ومـ علم المسلم من أحوالهم، فقد احتج مـالك فـى الموطأ بعمـل عبدالملك، وأمـا مـروان فكـان مـن الطبقـة الأولـى مـن التـابعين، وعدالتهم معروفة، ثم تدرج الأمر فى ولد عبدالملك وكـانوا مـن الديـن بالمكـان الـذى كـانوا عليـه، وتوسطهم عمر بن عبدالعزيز، فـنزع إلـى طريقـة الخلفـاء الأربعـة والصحابـة جهده ولـم يهمل[1].

قال بن سيرين: وَفَدَ عمر بن حزم على معاوية فقال له: أذكرك الله فى أمـة محمـد ﷺ بمن تستخلف عليها. فقال: نصحت وقلت برأيك. وقال عطيه بن قيس: خطـب معاويـة فقال: اللهم إن كنت عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه، وإن كنت إنمـا ـ..ـ حب الوالد لولده، وإنه ليس لما صنعت أهلا فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك.

كانت بيعة يزيـد رحمـه اللـه بيعـة شـرعية. ولـم تجتمـع كلمـة المسـمين أكـثر مـن اجتماعهم على بيعة يزيد والتشنيعُ عليه خروجٌ عن جادة الحق والصـواب، ولمـا استنكف من استنكف فما هو إلا من بعض ما رأوا أحقيتهم بها، وقـاموا لتـأييد حقهـم واسـترجاعه، ولكونهم أورع وأعدل منه بلا شبهه. ولكن هذا كان بعد إنعقاد البيعة لـه واستتباب الأمر إليه، فقام هو أيضاً يدافع عن بيعته كعلى ابن أبى طالب ﷺ، ولم يـأمر أمـراءه وجنده أن يفعلوا ما فعلوه من التعدى على حرمة أهل البيت رضي الله عنهـم، ولعـن اللـه مـن هتـك حرمتهم.

ذُكر فى حياة الحيوان أنه لما أتى شمر بن ذى الجوش بـرأس الحسـين ورمـاه بيـن يدى يزيد قال له: يا أمير المؤمنين ورد علينا هذا (يعنى الحسين) فى ثمانيـة عشـر رجـلا من أهل بيته وستة رجلا من شيعته فسرنا إليهم وسألناهم النزول على حكم أميرنا عبيدالله بن زياد أو القتال فاختاروا القتال، فغدونا عليهم عند شروق الشمس، واحتطنابهم مـن كـل جانب، فلما أخذت السـيوف مأخذهـا جعلـوا يلـوذون لـوذان الحمـام مـن الصقـور، فهـاتيك أجسادهم مجردة وثيابهم مزملة، وخدودهم تسفى عليها الريـاح زوارهـم العقبـان ووفودهـم الرخم.فلما سمع يزيد ذلك دمعت عيناه وقال: ويحكم كنت أرضـى مـن طـاعتكم دون قتـل الحسين، لعن الله بن مرجانه، والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه، ثـم قـال: يرحـم اللـه أبـا عبدالله.ثم أمـر بالذريـة فـأدخلوا دار نسـائه. وكـان يزيـد إذا حضـر غـداؤه دعـا عليـا بـن

(١) المصدر السابق.

الحسين وأخاه عمر بن الحسين فأكلا معه، ثم وجه الذرية صحبة على بن الحسين إلى المدينة ووجه معه رجلا فى ثلاثين فارسا يسير أمامهم حتى انتهوا إلى المدينة.

لم يأمر يزيد بقتل الحسين بن على رضي الله عنهما، ولم يظهر الرضى بقتله وأظهر الألم، وقام بالواجب فى الحسين وأهل البيت رضي الله عنهم أجمعين.

يقول المنصفون: أن حاصل ما يشهد ليزيد بحسن الحال أربعة أحاديث من الصحاح، لا يعادلها شئ بصحتها ولا بأدنى منها فى الغض منه، ولا يصرفها عنه صارف إلا بتجامل وتعسف:

- أحدها: أخرج البخاري فى صحيحه فى كتاب الجهاد والسير، قال: روي عن النبي ﷺ قوله: "أول جيش من أمتى يغزون مدينة قيصر (القسطنطينية) مغفوراً لهم"، وكان المسلمون قد غزو القسطنطينية مرتين الأولى فى خلافة معاوية وأمر فيها ابنه يزيدا، وغزا معه أبو أيوب الأنصاري الذى نزل الرسول ﷺ فى داره لما قدم إلى المدينة مهاجراً.
- الحديث الثانى: ويتناول يزيد بعمومه ولا يوجد حديث يستثنيه من ذلك العموم قوله ﷺ : خير الناس قومى، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم" وهذا الحديث ثابت فى الصحيحين.
- الحديث الثالث: من حديث جابر بن سمرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:"لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا" ثم قال النبي ﷺ: "كلهم من قريش" وهذا لفظ مسلم.
- الحديث الرابع: عن كتاب الفتن فى البخارى أن أهل المدينة لما خلعوا يزيد قال عبدالله بن عمر إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: "ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة" وإنا قد بايعنا هذا الرجل على بيع الله ورسوله.

يقول العلماء إن من أصول أهل العلم أهل السنة التى فارقوا بها الخوارج والمعتزله والمرجئه: أن الشخص الواحد تجتمع فيه حسنات وسيئات، فيثاب على حسناته ويعاقب على سيئاته.

إن أولئك مجتهدون مخطئون خطؤهم مغفورا لهم، وهم مثابون على ما أحسنوا فيه

من حسن قصدهم واجتهادهم فى طلب الحق وتباعه كما قال النبي ﷺ :

"إذا إجتهد الحاكم فأصاب فله أجران، وإذا إجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر".

ومن أصول أهل العلم: أنه لا يمكن أحد من الكلام فى هؤلاء بكلام يقدح فى عدالتهم وديانتهم، هم عدول مرضيون، رضي الله عنهم وأرضاهم، والمنقول عنهم من العظائم كذب مفتري.(١)

الحجاج بن يوسف الثقفي

ذكر ابن خلكان فى ترجمة الحجاج بن يوسف الثقفي:

وإنى لأكره أن يتقول عن أحد ما يشينه بدون أن يكون النقل ثابتا على طريقة المحدثين. فأما صلاة الحجاج وإمامته بكثير من الصحابة وخطبه فيهم فثابت لا ينكر، وكذلك عبادته وقراءته القرآن ومناقبه فى الغزو والجهاد والفتوح ببلاد العجم والشرق لا يحتاج إلى دليل، وحين صار أهل الأهواء يحرفون القرآن كما نقل القسطلانى فى كتاب لطائف الإشارات: أن المعتزله قرأوا قوله تعالى:﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾(٢) بنصب لفظ الجلالة، وأن مبغضى الشيخين قرأوا قوله تعالى﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾(٣) بتثنية المضل لا جمعه ويعنون بهما أبا بكر وعمر رضي الله عنهما. فزع الحجاج إلى كتابه وسألهم أن يضعوا لهذه الحروف المشتبهة فى القرآن علامات، وقام نصر بن عاصم وبأمر من الخليفة بوضع النقط أفرادا وأزواجا.

ولو تتبعنا سيرة الحجاج وما قام به من سائر أعماله لا نشك فى أنه كان ساعيا فى جمع الكلمة، ولم الشعث وإخماد الفتن الداخلية، ليتفرغوا لنشر الدعوة إلى الإسلام، ومآثره فى الفتوحات ببلاد الشرق، وحنكته وتدبيره لا يحتاج إلى دليل ولا برهان.

قيل عنه أنه قتل سيد التابعين سعيد بن جبير رضي الله عنه.ولعل للحجاج بعض العذر فى ذلك فقد ذكر بن خلدون أن الحجاج استعمل سعيد بن جبير على عطاء الجند الذين وجههم إلى قتال ملك الترك(رتبيل) وكان رتبيل يؤدى خراج الجند ثم عصى وتمرد، فجرد له الحجاج عبدالرحمن بن الأشعث بجيش غزا بلاده واستولى عليها كلها،

(١) المصدر السابق
(٢) النساء ١٦٤.
(٣) الكهف ٥١.

ولم يلبث الأشعث حتى انتفض على الحجاج وخلعه وصالح رتبيل على أنه إن ظهر فلا خراج على رتبيل ما بقى الدهر، وإن هزم منعه ممن يريده، ودخل البصرة، وبايعه أهلها، واشتد القتال بينه وبين الحجاج سنة ٨٢هـ. وخلع عبدالملك وكاد أمر الحجاج أن يتلاشى.

وكان ممن لحق عبدالرحمن بن الأشعث وخلع الحجاج سعيد بن جبير ﷺ، ولما هلك بن الأشعث، لحق سعيد بأصبهان ثم إلى أذربيجان ثم إلى مكة مع أناس من أمثاله يستخفون بأسمائهم، فبعث الحجاج من يحمل أهل العراق الذين هم فى مكة إليه، فيجئ بهم إليه، ومنهم سعيد بن جبير، فلما رآه الحجاج شتم خالد القسرى على إرساله وقال: لقد كنت أعرف أنه بمكة، وأعرف البيت الذى كان فيه، ثم أقبل على سعيد وقال: ألم أشركك فى أمانتى؟ ألم أستعملك؟.. ثم تفعل ـ يعدد أياديه عنده ـ فقال: بلى.قال: فما أخرجك على قتالى؟ قال: أنا امرؤ من المسلمين أخطئ مرة وأصيب أخرى،ثم استمر فى محاورته. فقال: إنما كانت بيعة فى عنقى، فغضب الحجاج وقال: ألم آخذ بيعتك لعبدالملك بمكة بعد مقتل ابن الزبير، ثم جدد له البيعة فى الكوفة فأخذت بيعتك ثانيا؟ قال: بلى.قال فنكثت بيعتين لأمير المؤمنين، وتوفى بواحده.. والله لأقتلنك.فقال إنى لسعيد كما سمتنى أمى.

فضربت عنقه فهلل رأسه ثلاثا أفصح منها بمرة.

ويقال أن عقل الحجاج التبس يومئذ، وجعل يقول: قيودنا.فظنوها قيود سعيد بن جبير فأخذوها من رجليه، وكان إذا نام يرى سعيد بن جبير فى منامه آخذا بمجامع ثوبه يقول: يا عدو الله فيم قتلتنى، فينتبه مرعوبا يقول: مالى ولسعيد بن جبير.

لقد خلع سعيد بن جبير التابعى الجليل بيعة عبدالملك بن مروان وانضم إلى الخارجى فى أحرج أوقات الجهاد والفتوح، ولكن حيث تاب وأتى إلى الحجاج كان على الحجاج أن يعفو عنه لأن أهل البغى لا يجوز الإجهاز على جرحاهم..ولكن قضى الله تعالى له بالشهادة.

روىَ عن أمير المؤمنين عمر بن عبدالعزيز رحمه الله أنه رأى الحجاج فى المنام بعد موته وهو جيفة منتنه، فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: قتلنى بكل قتيل قتلته قتلة واحدة إلا سعيد بن جبير فإنه قتلنى به سبعين قتله. فقال له: مالأنت منتظر؟ قال: ما ينتظره الموحدون.عفا الله عنه والعصمة لله وحده.[1]

(١) أنظر نفس المصدر السابق ص ١٩١: ١٩٨.

حادثة التحكيم فى الحرب بين على ومعاوية رضي الله عنهما

ردد المستشرقون وتلامذتهم على غير علم صحيح، أن عمرو بن العاص غدر بأبى موسى الأشعرى رضي الله عنهما، وقدمه للكلام بعد أن اتفقا على خلع معاوية وعلى رضي الله عنهما، وخلع أبو موسى معاوية وعليا، بينما تقدم عمرو بعده فخلع عليا، وأثبت معاوية. وأن عليا ﷺ كان إذا قنت لعن معاوية وعمرا وغيرهما من أهل الشام، كما أن معاوية كان فى قنوته يلعن عليا وابن عباس والأشتر وحسنا وحسينا!!

والذى يصح من ذلك هو ما روى الأئمة خليفة بن خياط(من شيوخ الإمام البخارى) وأحد أوعية العلم، وأبو الحسن على بن عمر الداراقطنى من أئمة فقهاء الشافعية:

أنه لما خرجت الطائفة العراقية فى مائة ألف والشامية فى سبعين ألف نزلوا على الفرات بصفين، اقتتلوا فى أول يوم وهو يوم الثلاثاء على الماء فتغلب أهل العراق عليه، ثم التقوا يوم الأربعاء لسبع خلون من صفر سنة ٣٧، ويوم الخميس ويوم الجمعة وليلة السبت ورفعت المصاحف من أهل الشام، ودعو إلى الصلح، وتفرقوا على أن تجعل كل طائفة أمرها إلى رجل حتى يكون الرجلان يحكمان بين الدعويين بالحق، فكان من جهة على أبوموسى، ومن جهة معاوية عمرو بن العاص، وكان أبو موسى رجلا تقيا نقفا فقيها عالما، أرسله النبى ﷺ إلى اليمن مع معاذ، وقدمه عمر وأثنى عليه بالفهم.(١)

قال المستشرقون: أنهما لما اجتمعا بأذرح من دومة الجندل، وتفاوضا، واتفقا على أن يخلعا الرجلين، فقال عمرو لأبى موسى: أسبق بالقول. فتقدم فقال: إنى نظرت فخلعت عليا من الأمر، وينظر المسلمون لأنفسهم، كما خلعت سيفى هذا من عنقى ـ أو من عاتقى ـ وأخرجه من عنقه فوضعه فى الأرض. وقام عمرو فوضع سيفه فى الأرض وقال: إنى نظرت فأثبت معاوية فى الأمر كما أثبت سيفى هذا فى عاتقى، وتقلده، فأنكر أبو موسى، فقال عمرو: كذلك اتفقنا وتفرق الجمع على ذلك من الإختلاف.

قال أبوبكر بن العربي فى (العواصم من القواصم) معلقا على ذلك: هذا كله كذب صراح، ما جرى منه حرف قط، وإنما هو شئ أخبر عنه المبتدعه ووضعته التاريخيه للملوك، فتوارثه أهل المجانه والجهاره بمعاصى الله والبدع.(٢)

---

(١) زعم المستشرقون أنه كان أبله ضعيف الرأى مخدوع فى القول.

(٢) أنظر د.محمد رشاد خليل ـ المنهج الإسلامي لدراسة التاريخ وتفسيره ص٧٧-٧٩.

وذكر ابن كثير فى البداية والنهاية: لما إجتمع الحكمان تراوضا على المصلحة للمسلمين، ونظرا فى تقدير الأمور، ثم اتفقا على أن يعزلا عليا ومعاوية ثم يجعلا الأمر شورى بين الناس ليتفقوا على الأصلح لهم منهما أو من غيرهما.وقد أشار أبو موسى بتولية عبدالله بن عمر بن الخطاب.فقال له عمرو: فول ابنى عبدالله فإنه يقاربه فى العلم والعمل والزهد.(١)

القتلة الحقيقيون للحسين بن علي رضي الله عنه

يقول المنصفون من أهل العلم:

كانت حادثة كربلاء فاجعة كبيرة نزلت بآل البيت وذهب فيها بطلها الحسين بن علي ﷺ وأكثر إخوانه وأبنائه، وهو أفضل من عليها يومذاك، وإذا كان الإمام الحسين ﷺ مجتهداً فى خروجه إلا أن ذلك الخروج ليس له ما يبرره من الناحية الشرعية، كما أنه ليس بالصحيح من الناحية السياسية والعسكرية والإجتماعية، فجماعته لا تزيد كثيرا على المائة أكثرها من النساء والأطفال، تخرج إلى مكان تعم فيه الفوضى ليقوم زعيمها هناك بالثورة ضد الحكم، ويحمل لواء الجهاد ليعمل على تطبيق المنهج الإسلامي بشكل أكثر سلامة، وتتوقع هذه الجماعة القتال والصدام بوالى بنى أمية الذى يملك الأمر بشكل قوى، ويقسو على أنصارها بكل شدة، وإذا نظرنا إلى ما فعله أحد ولاة بنى أمية فى هذه الحادثة ألا يجب أن ننظر إلى ما فعله أولئك الذين دعوا الحسين للخروج إليهم، ثم تخلوا عنه ساعة الشدة وسلموا رسوله ابن عمه مسلم بن عقيل وقت الضيق، بل انضم أكثرهم إلى الجيش الذى قاتل الحسين، وشاهدوا مصرعه، ولم ينصروه، ألا يُعد أولئك هم القتلة الحقيقيون له !

إن الذين تولوا كبر هذه الفاجعة إنما هم الذين سجلوها بهذه الصورة فذكروا ما فعلت خصومهم ونسوا ما اقترفت أيديهم هم منها، فلم يسجلوا خيانتهم له، ومشاركتهم فى قتله وأنصاره وأهله.

وإضافة إلى فاجعة كربلاء كانت ثورة زيد بن على بن الحسين رضي الله عنهم

(١) منير محمد الغضبان ـ معاوية بن أبى سفيان صحابى كبير وملك مجاهد ـ دار القلم دمشق ـ نقلا عن البداية والنهاية للإمام بن كثير ج٧ ص ٢٨٣.

فى الكوفة سنة ١٢٢هـ أيام خلافة هشام بن عبدالملك، وكما سلم أهل هذه المدينة الحسين بن علي سلموا كذلك حفيده زيد وقد دعوه للخروج وحثوه على ذلك، فلما قام تخلوا عنه ورفضوه ومنذ ذلك الوقت عرفوا باسم الرافضة وهو الذى أطلق عليهم هذا الإسم، وبعد كل هذا لم يرعووا ولم يتفكروا بل قاموا يعلنون توبتهم بعد كل حادثة يرتكبونها، فهم الذين أعلنوا عدم الطاعة للإمام علي كرم الله وجهه، وتوانوا عن نصرة الحسين، وتباطؤا فى القتال حتى رأى أنه لابد من مبايعة معاوية، ثم بدؤوا يظهرون اللوم والتأفف، ثم تخلوا عن الحسين وعن زيد بعد أن دعوهم للخروج وأظهروا لهم التأييد[١]

ذكر بن جرير الطبرى فى تاريخه فى حوادث سنة ستين ومائة فى ذكر الخبر عن مسيرة الحسين إلى الكوفة قال: قال أبو محنف عن عدى بن حرمله عن عبدالله بن سليم والمدري قال: أقبلنا حتى انتهينا إلى الصفاح، فلقينا الفرزدق بن غالب الشاعر، فواقف حسينا فقال له: أعطاك الله سؤلك وأمّلك فيما تحب.فقال له الحسين: بين لنا نبأ الناس خلفك. فقال الفرزدق: من الخبير سألت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء، وحين عزم على المسير نصحه ابن عباس كثيرا وكثيرا ليقضى الله أمرا كان مفعولا.[٢]

يقول أهل العلم الصحيح كان معاوية ﷺ يتوقع أن يُخرِجَ أهلُ العراق الحسين، وقد حذر ابنه يزيد من إساءة معاملة الحسين ﷺ إذا حدث ذلك، فقد روى أن قال له: وأما الحسين بن علي فإنه له رحما ماسة وحقا عظيما، وقرابة من محمد ﷺ، ولا أظن أهل العراق بتاركيه حتى يخرجوه. فإن قدرت عليه فاصفح عنه، فإنى لو أنى صاحبه عفوت عنه. ولقد أدرك يزيد مغبة هذا الحادث الشنيع وعاش طوال عمره نادما، وكان كلما ذكر الحادث قال آسفا: وما كان على لو احتملت الأذى، وأنزلته معى فى دارى وحكمته فيما يريد. وإن كان على فى ذلك وكف ووهن فى سلطانى حفظا لرسول الله ﷺ ورعاية لحقه وقرابته. لعن الله بن مرجانه، فإنه أخرجه، واضطره وقد كان سأله أن يخلى سبيله ويرجع فلم يفعل أو يضع يده فى يدى، أو يلحق بثغر من ثغور المسلمين حتى يتوفاه الله عزوجل. فلم يفعل، فأبى ذلك ورده عليه وقتله فبغضنى بقتله إلى المسلمين، وزرع لى فى

(١) أنظر محمود شاكر ـ التاريخ الإسلامي ـ ج٤ ـ المكتب الإسلامي
(٢) د.أبواليسر عابدين ـ المرجع السابق ص ٢٢٨.

قلوبهم العداوة، فبغضني البر والفاجر، مما استعظم الناس من قتلي حسينا مالي ولابن مرجانه لعنةُ الله.[1]

الخلاصة

- ظلم التاريخ بنى أمية ظلماً كثيراً، إذ طمس كل ما لهم، من فضائل وإيجابيات ولم يتعرض لها أبدا ولم يذكرها !

وبالمقابل فإنه توسع فى ذكر السلبيات، أو افترى عليهم الكذب، فنسب لهم ما لم يكن منهم، وأوجد حوادث لم تقع فى أيامهم، ويعود ذلك إلى أن كتابة التاريخ إنما كانت بأيد شيعية حاقدة، كان وراءها أهداف وغايات.

- كان معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنهما صحابيا جليلاً، والصحابة كلهم عدول، وإن اجتهد فى بعض القضايا، ولم يوفق فى الإجتهاد، ولم يحالفه التوفيق فى النتائج إلا أنه يبقى صحابياً عدلاً.

- لقد أشيعت عن العصر الأموي روايات لا سند لها يدعمها ويجعلها فى مستوى الروايات.وإنما كلها محض افتراءات[2].

اتهموا معاوية ﷺ رغم ما عنده من أوسمة خالدة أولها الوسام النبوي فهو من جملة كتاب الوحى، ثانيهما وسام عمر بن الخطاب فقد جعله أميراً على الشام طوال مدة خلافته، ثالثهما وسام التاريخ فقد سجل أنه صحابي كبير وملك مجاهد.

(١) د.محمد رشاد خليل ـ المنهج الإسلامي لدارسة التاريخ وتفسيره ـ دار التوزيع والنشر الإسلامية ـ نقلا عن الكامل لابن الأثير مجلد ٥ ص ٨٧ وانظر تفصيل هذه المسألة فى كتاب عبدالملك بن مروان ـ لضياء الدين الريس ص ١٠٢.

(٢) أنظر محمود شاكر ـ التاريخ الإسلامي ـ العهد الأموي ـ الجزء الرابع ـ المكتب الإسلامي ط (٧).

obeikandl.com

الدولة العثمانية

كتب المؤرخون عن الدولة العثمانية، وتناولوها بالتأريخ والتحليل.. منهم من كتب بأمانة، ومنهم من زاد على ذلك في تحامله وتحميله الأحداث أكثر من طاقتها.

يسمون الدولة العثمانية بالاستعمار تارة، وبالاحتلال تارة، وبالظلم والجور والعسف تارة أخرى.

ما أحوج الأجيال الصاعدة لمعرفة تاريخها الحقيقي الذي طمسه الغرب النصراني والصهيونية بقصد مطامح استعمارية استيطانية.. ما أحوجها لدرء الخطر الذي يتهددها في حاضرها ومستقبلها.

أما آن الأوان لكتابة تاريخنا المشرق بأيد نظيفة، لخيرنا وخير الإنسانية جمعاء؟

obeikandi.com

نشأة الدولة العثمانية (الدولة فى طورها الأول)

تُعتبر الدولة العثمانية أعظم الدول الإسلامية التي أخرجتها التركستان الشرقية، وأطولها عمرًا، وأعظمها نفعًا للإسلام والمسلمين.

بدأ ظهور العثمانيين في التاريخ عندما دفعت غزوات المغول في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي إحدى القبائل التركية الإسلامية للاتجاه صوب أراضي الدولة العباسية، واستقرت في الأناضول بقيادة **أرطغرل بن سليمان**، الذي التحق بخدمة السلطان علاء الدين السلجوقي، وساعده في جهاده ضد ا لبيزنطيين، وأقطعه في مقابل ذلك مقاطعة كانت النواة الأولى للدولة العثمانية، التي استمرت من القرن السابع إلى القرن الرابع عشر الهجري.

تولى الحكم بعد أرطغرل ابنه الغازي **عثمان**، الذي يُعتبر بحق مؤسس الدولة العثمانية، والتي تُنسب إليه، فقد استطاع أن يوسع رقعة مقاطعته الصغيرة بالتوسع نحو بحر مرمرة، ثم تولى الحكم بعده **أورخان بن عثمان** ٧٢٦-٧٦٣هـ، الذي استولى على أراضي الدولة البيزنطية في آسيا الصغرى، ونشر الإسلام في تلك البقاع، وأكثر من فتح المساجد والمدارس، وعبر مضيق الدردنيل إلى البر الأوروبي.

وفي عهد **مراد الأول** ٧٦٣-٧٩١هـ/ ١٣٦١-١٣٨٩م: توسعت الدولة العثمانية توسعًا كبيرًا، واستولى على بلغاريا وسلانيك وأرهب الأوربيون، فنظموا حملة صليبية بسبب نداءات البابا، وتداعت أوربا لحرب هذه القوة الإسلامية الفتية الصاعدة، وكانت تلك الحملة بقيادة ملك المجر وبجيش قوامه مائة ألف مقاتل، وكان الجيش العثماني قليل العدد، حيث لم يزد أفراده عن عشرة آلاف مقاتل.. ومع هذا أنزل الله نصره على جنوده المجاهدين الصابرين، وانهزم الصليبيون هزيمة نكراء.

أعدت الدول الأوربية حملة أخرى بجيش كثيف للانتقام من العثمانيين وتقابل الجيشان، وكانت حصيلة المعركة هزيمة أخرى للصليبيين، وانتصارًا ساحقًا للعثمانيين، مكنهم من الوصول إلى بحر الأدرياتيك، مما أفزع العالم الأوربي المسيحي، وتنادوا لإقامة حملة صليبية ثالثة عام ٧٩١هـ/١٣٨٩م، وللمرة الثالثة تمت هزيمة الصليبيين.

وبينما كان مراد الأول يتجول في ساحة المعركة، اغتاله أحد الأعداء فذهب إلى ربه شهيدًا.

السلطان بايزيد

عندما تولى السلطان بايزيد، كانت أراضي الدولة العثمانية قد وصلت إلى وسط أوروبا، ولم تسكت أوروبا، وللمرة الرابعة تجمعت جيوش ١٥ دولة أوروبية لمحاربة المد الإسلامي الصاعد على يد الدولة العثمانية الفتية، والتقت الجيوش عام ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م، وكانت نتيجة المعركة الضارية النصر المؤزر للجيش العثماني بقيادة السلطان بايزيد، ولم تستطع جحافل أوروبا أن تنتصر على هذا السلطان، ولكن حاكمًا مسلمًا آخر استطاع أن يُخضع السلطان بايزيد ويهزمه، وهو **تيمورلنك** في معركة أنقرة عام ٨٠٥هـ/ ١٤٠٢م وانتهت المعركة بأسر بايزيد وموته في الأسر كمدًا وحزنًا.

وتمزقت الدولة العثمانية لفترة محدودة، ولكن سرعان ما لبثت أن عادت بعدها لتواصل مسيرتها القوية على يد محمد الأول بن السلطان بايزيد.

السلطان مراد الثاني

عندما جاء مراد الثاني استطاع أن يُعيد لهذه الدولة قوتها حتى وصلت جيوشه المجر، مما أدى إلى قيام حملات صليبية جديدة، استطاع السلطان مراد الثاني هزيمتها.

تنازل السلطان مراد الثاني لابنه محمد الثاني (محمد الفاتح) الذي لم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من العمر ليتفرغ هو للعبادة.

وعندما علمت أوروبا بذلك جردت حملة صليبية ضخمة، فأرسل محمد الثاني لوالده قائلاً له: "إن كنت أنا السلطان فأنا آمرك بقيادة الجيش، وإن كنت أنت السلطان فدافع عن مملكتك".

آنذاك قام السلطان مراد الثاني بواجب الجهاد، وهزم جيش الصليبيين البالغ أكثر من مائة ألف جندي، وأراد مراد الثاني بعد هذه المعركة أن يعود إلى عزلته، فأبى عليه ذلك رجال الدولة والجيش، واستمر في الحكم لحين وافته المنية سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م.

السلطان محمد الفاتح

تولى محمد الفاتح، الشاب القوي الجريء الحكم بعد والده ٨٥٥-٨٨٦هـ/ ١٤٥١-١٤٨١م، واستطاع هذا السلطان الشاب أن يفتح القسطنطينية [١] التي قال فيها الرسول ﷺ: (لتُفْتَحَنَّ القسطنطينة.. فلنعم الجيش جيشها، ولنعم الأمير أميرها).

وبفتح القسطنطينة زالت الإمبراطورية البيزنطية إلى الأبد، وقد تم ذلك الفتح المبين عام ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م. ولقد عامل محمد الفاتح النصارى معاملة حسنة، على عكس ما فعله ويفعله الصليبيون عندما يظفرون بالمسلمين.

وجاء في كتاب محمد الفاتح إلى أهل القسطنطينية بعد أن أقسم بالله خالق الأرض والسموات بأنه يعطي الأهالي المسيحيين حريتهم في العبادة والتجارة قائلاً لهم: "يستطيع الأهالي أن يديروا أموالهم وبيوتهم ومتاجرهم وبساتينهم ومراكبهم وتجارتهم، وأن يحافظوا على أولادهم وزوجاتهم كما يشاؤون. وهم أحرار في بيع تجارتهم في جميع أنحاء البلد.. وسيحافظ على كنائس وصلوات أهل المدينة.. وإنني لن أحوّل كنائسهم إلى جوامع، ولن آخذ أبناءهم إلى الإنكشارية (الخدمة العسكرية آنذاك)، ولن أكرههم على الدخول في ديننا. وأعدهم بأنني لن أعاملهم كعبيد، بل سأحافظ عليهم وأدافع عنهم كما أحافظ وأدافع عن نفسي".

وقد بر السلطان بوعده.. وهكذا كان المسلمون بصورة عامة رحماء بالنصارى، يعاملونهم معاملة كريمة في جميع مراحل الفتوح الإسلامية منذ عهد الراشدين.. وهم على العكس من ذلك لا يرقبون في مؤمن إلاً ولا ذمة.. وعندما تسنح لهم الفرصة يقومون بذبح ا لنساء والأطفال والشيوخ والضعفاء.. وكم هي جرائمهم في الحروب الصليبية في الشام وبيت المقدس.. وكم هي جرائمهم في الأندلس.. وكم هي فظائعهم في روسيا القيصرية التي أجبرت المسلمين على التنصر أو القتل، تمامًا مثلما فعل الأسبان.. وكم من مآسي لا تزال تحدث حتى اليوم.

استمر بناء وتوسيع الإمبراطورية على يد السلطان الشاب محمد الثاني، بعد أن

---

(١) غزا الأسطول العربي القسطنطينية بقيادة بسر بن أرطأة سنة ٤٤هـ/ ٦٤٤م، وحاصرها يزيد بن معاوية سنة ٥٢هـ/ ٦٧٢م، ثم حاصرها العرب نحو أربع مرات بعد ذلك، ولم يفتحوها لمنعتها، وأخيرًا فتحها محمد بن مراد الثاني، وهو ابن أربع وعشرين سنة، سنة ٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م.

تحقق على يديه العمل الباهر الذي تطلع إليه حكام الإسلام منذ أيامه الأولى.

كان محمد الفاتح يعتقد أنه لا مناص للعثمانيين من الاستيلاء على القسطنطينية إذا أرادوا تدعيم ممتلكاتهم في أوروبا.

كيف تم فتح القسطنطينية؟

مهد محمد الفاتح لهذا العمل العظيم عن طريق الاستعدادات السياسية والعسكرية. فقام بتجديد كل المعاهدات واتفاقيات الهدنة مع جميع جيرانه والأمراء الذين تربطهم بالدولة علاقات معينة، وباستكمال المنشآت التي بدأها السلطان بايزيد الأول على مقربة من القسطنطينية.

وفي يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من مايو عام ١٤٥٣م أصبحت مدينة الأباطرة - بعد حصار استمر ثلاثة وخمسين يومًا - ثالث وآخر عاصمة لدولة الخلافة الإسلامية. واتجه محمد الفاتح مباشرة إلى كنيسة أياصوفيا حيث أذن المؤذنون للصلاة، ثم صعد السلطان بعد ذلك إلى مذبح الكاتدرائية وأدى صلاة الظهر إيذاناً بتحويلها إلى مسجد. وأطلق السلطان على مدينة القسطنطينية إسلامبول [١]، أي عاصمة الإسلام، وقد رفع الاستيلاء على القسطنطينية من شأن العثمانيين في العالم الإسلامي.

بعث محمد الثاني إلى أمراء المسلمين ينبئهم بذلك الفتح العظيم، وفي رسالته إلى عزيز مصر "اينال شاه" عام ١٤٥٣-١٤٦٠م سلطان دولة المماليك الشراكسة قال:

"إن من أحسن سنن أسلافنا أنهم مجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون لومة لائم، ونحن على تلك السنة قائمون، وعلى تلك الأمنية دائمون، ممتثلين بقوله تعالى: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ﴾ [٢]، ومستمسكين بفضل الملك العلام، إلى أداء فرض الغزاء في الإسلام، مؤتمرين بأمره تعالى: ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [٣]، وجهزنا عساكر الغزاة والمجاهدين من البر والبحر، لفتح مدينة مُلِئَت فجورًا وكفرًا، والتي بقيت وسط الممالك الإسلامية تباهي بكفرها فخرًا.

---

(١) تكتب أحيانًا استامبول وأحيانًا اسلانبول، وهو اسم استخدمه المسلمون منذ الأيام الأولى للإسلام، وظل اسم القسطنطينية يستخدم كمصطلح رسمي عثماني.

(٢) التوبة ٢٩.

(٣) التوبة ١٢٣.

لقد أحرز محمد الفاتح في فترة حكمه التي امتدت ثلاثين عامًا (١٤٥١-١٤٨١م) الكثير بجانب هذا العمل العظيم، حيث امتدت الإمبراطورية دولة الخلافة الإسلامية في البلقان وبلاد اليونان وأصبح البحر الأسود بحيرة إسلامية، واستولى على مملكة طرابزون. وفي عام ٨٨٠هـ/ ١٤٧٥م تم الاستيلاء على جزيرة القرم.

السلطان سليم الأول ٩١٨-٩٢٦هـ/ ١٥١٢-١٥٢٠م

في عهد السلطان سليم الأول تمت فتوحات كثيرة، واستولى على أرضروم ومرعش وأذربيجان، وبعد هزيمة الصفويين في إيران في موقعة "جالديران" عام ١٥١٤م، تمكن من احتلال سوريا بعد موقعة "مرج دابق" عام ١٥١٦م، ثم احتلوا مصر في العام التالي.

السلطان سليمان (الملقب بالقانوني) [١]

جاء بعد السلطان سليم إلى الحكم ابنه (سليمان الملقب بالقانوني) حيث وصلت الإمبراطورية العثمانية إلى أوج عظمتها، وعاشت دورها الذهبي، وقد حكم ٤٨ سنة قضى معظمها في أسفار الفتوحات، إذ بلغ عدد الحملات التي قادها بنفسه ثلاث عشر حملة، ففتح بلغراد وجزيرة رودس والمجر، ووصل إلى أبواب فيينا، وفتح بغداد وأجزاء من إيران، كما فتح شمال أفريقيا.

ولمعرفة مدى اتساع هذه الفتوحات، نقول أنه تسلم إمبراطورية مساحتها ٧,٥ مليون كم٢ ولكن هذه المساحة بلغت عند وفاته ١٣ مليون كم٢.

ويُذكر لهذا السلطان المجاهد أنه أدخل نظمًا وتنظيمات كانت كلها مستمدة من الشريعة الإسلامية، ولم تكن مستمدة كما أُشيع عنه من القوانين الوضعية [٢].

في عهده توحدت البلاد العربية من الجزائر إلى الخليج العربي شرقًا، ومن حلب شمالاً إلى خليج عدن وبحر العرب جنوبًا، ووصلت الخلافة العثمانية إلى أوج مجدها.

والشيء الذي يُذكر لهذا الحاكم المسلم أنه أصدر في عام ١٥٢٠م فرمانًا لاحقًا أكد

(١) لأنه وضع القوانين المنظمة لمرافق الدولة.
(٢) انظر د. جمال عبدالهادي محمد مسعود وآخرون ـ الدولة العثمانية ص٥٥ـ الوفاء للطباعة والنشر.

فيه ما جاء في الفرمان الذي صدر في عهد أبيه السلطان سليم الأول بمنع اليهود من استيطان سيناء.

(خير الدين باربروسا) وأخوه (عروج) لم يكونا قرصانين [1]

كان خير الدين البحار الشهير وأخوه عروج نصرانيين، من إحدى جزر بحر إيجه، كانا يعملان في القرصنة البحرية، ثم هداهما الله إلى الإسلام فأسلما ودخلا في خدمة السلطان "محمد الحفصي" صاحب تونس، وكانا يعترضان السفن الأسبانية والبرتغالية المحاربة وغيرها.

استطاع عروج أن يحرر مدينةالجزائر، وأن يهزم جيوش شارلكان التي أرسلها لمحاربته، كما حرر مدينة تلمسان، غير أنه قُتِل في إحدى حروبه مع الأسبان. واستمر خيرالدين في عمله البحري، ووجه كل اهتمامه ضد الأسبان انتقامًا لما فعلوه بالمسلمين في الأندلس.

عندما جاء السلطان "سليم" إلى مصر أرسلا له رسولاً يعلنان له خضوعهما للدولة العثمانية، وفي عهد السلطان "سليمان" قام خيرالدين بربروس بغزو موانى جنوب إيطاليا، ونجح في تحرير تونس من الاحتلال الأسباني، فانزعج الصليبيون من أبناء أوروبا الذين كانوا يعدون لاغتصاب الشمال الأفريقي.

لقد كان خيرالدين وأخوه مجاهدين مسلمين، وكان لهما دور عظيم في مواجهة الزحف الصليبي على ديار المسلمين.

لقد لعب العثمانيون دورًا كبيرًا في صد هجمات البرتغاليين والأسبان والدول الأوروبية الأخرى على البلاد العربية ابتداءً من الشمال الأفريقي.. المغرب وتونس والجزائر وليبيا، وانتهاء باليمن وعمان والصومال.

كما لعب العثمانيون دورًا بارزًا وهامًا في صد الامتداد التوسعي للدولة الصفوية في إيران والتي استولت على العراق مما أدى في النهاية إلى إضعاف الدولتين المسلمتين، وتحولهما إلى لقمة سائغة للجيوش الروسية خاصة، والأوروبية عامة.

---

(١) المصدر نفسه.

تصدى السلطان سليم الأول للهجمة البرتغالية الأسبانية الشرسة، التي غزت ديار الإسلام تحت شعار الاكتشافات الجغرافية، لتطويق العالم الإسلامي ونهب ثرواته.

حينما اتجه الأسبان والبرتغاليون نحو بلاد المسلمين ـ كان شعارهم الصليب أو الدفع، ووجهوا مدفعيتهم إلى المدن، وهدموا المساجد في شرق أفريقيا، وهاجموا مراكب الحجاج في البحر الأحمر، وقتلوا ومثلوابالحجيج، وأرادوا اقتحام مكة والمدينة ـ تصدى لهذا العدوان البرتغالي الأسباني الصليبي السلطان سليم الأول، بعد أن أحس بأن مقدسات المسلمين في خطر، تاركًا الجبهة الأوروبية، وحركة الجهاد مستعرة بها، وجاء ليوحد العالم الإسلامي.. العراق والجزيرة العربية وسوريا وفلسطين ومصر وليبيا والجزائر والمغرب وتونس في جبهة واحدة مع شبه جزيرة البلقان وشبه جزيرة الأناضول، ومعظم أوروبا الشرقية ضد الهجمة البرتغالية الأسبانية.

وعندما بدأ الصفويون يتحرشون بالعثمانيين، ويحاولون التوسع، بعد أن تحالفوا مع المماليك، وسعوا إلى نشر المذهب الشيعي، قاد السلطان سليم جيشًا استطاع به تأديب الصفويين الذين تحالفوا أحياناً مع البرتغاليين أعداء الأمة الإسلامية ضد العثمانيين [1].

ويقرر المؤرخ أرنولد توينبي بأن سياسة الدولة الصفوية في إيران ـ خلال المحاولة التي قام بها الصفويون لبسط المذهب الشيعي في العراق وآسيا الصغرى ـ هي التي دفعت الدولة العثمانية إلى الخروج إلى الشرق العربي لحماية آسيا الصغرى خاصة والعالم السني بصفة عامة [2].

ويرى فريق من المؤرخين أن السلطان سليم الأول قد وجه اهتمامه نحو الشرق لصد الخطر الصليبي وحماية الشرق الأدنى الإسلامي بعد أن دخل البرتغاليون البحر الأحمر عام ١٥١٣م واستولوا على عدن وجزر كمران.

تنازل الخليفة العباسي عن الخلافة الإسلامية للسلطان سليم الأول

أجمعت معظم مصادر التاريخ على أن الخليفة المتوكل على الله تنازل عن الخلافة للسلطان سليم، وسلمه شاراتها وهي البردة التي كان يلبسها الخلفاء العباسيون في بغداد،

(١) انظر جمال الدين عبدالهادي وآخرون ـ الدولة العثمانية ـ دار الوفاء.
(٢) عمر عبدالعزيز عمر ـ تاريخ المشرق العربي ص٨٨ ـ دار النهضة العربية.

وسيف الخليفة عمر بن الخطاب، والتي لا تزال محفوظة حتى اليوم في مسجد أبـي أيـوب في إسلامبول.

ومنذئذ أصبح السلطان العثماني هو خليفة المسلمين، وصارت إسـلامبول هـي مقر الخلافة الإسلامية العظمى.

يرى المؤرخ ابن خلدون في مجيئ الأتراك العثمانيين برهانًا على عناية الله المتواصلة بالإسلام والمسلمين فيقول:

"بينما كانت الخلافة الإسلامية قد ضعفت وفسد أمرها، ولم تعد قادرة على صد أعدائها، جلب الله تعالى لها بحكمته وحسن تدبيره وإحسانه حكامًا وحماة جددًا من بين قبائل الترك العنيدة العظيمة، حتى ينفث من جديد الروح في جسم الإسلام، ويُعيد إلى المسلمين وحدتهم" [1]. ويقول فهمي جدعان [2]: "كان يحكم مشرق العالم الإسلامي ـ عند مطلع القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي) ـ دولاً ثلاث هي الدولة العثمانية في آسيا الصغرى والأناضول، والدولة الصفوية في إيران، ودولة المماليك في مصر وسوريا.

أما غرب هذا العالم فكان تحت حكم السعديين الفلاليين ومن بعدهم العلويين، وقد كانت أخطار الأسبان والبرتغال تتهدده باستمرار، وكانت أفريقيا (تونس) في ظل الخلافة الحفصية، كانت موانئها ومدنها أيضًا تعاني باستمرار من هجمات الأسبان الذين بعد أن استردوا الأندلس راحوا يتطلعون إلى الاستيلاء على أفريقيا المسلمة.

ولا شك أن الدولة العثمانية هي التي قُدِرَ لها أن تكون أعظم هذه الدول إطلاقًا، وأن تؤدي دورًا فاعلاً حاسمًا في التاريخ حتى مطلع القرن العشرين. ولقد تعاقب على حكم هذه الدولة في مراحل تكوينها وتوسعها العظيم عدد من عظماء السلاطين الدهاة الذين غيروا شكل العالم في القرن الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر، مؤسسين إمبراطورية شاسعة امتدت من مداخل فيينا إلى مضائق باب المندب، ومن بلاد القفقاس عبر شمال أفريقيا، إلى مشارف شواطيء الأوقيانوس الأطلسي. وبتعبير آخر توسعت

(١) البرت حوراني: الأسس العثمانية للشرق الأوسط ـ لونجمانز ص٦.
(٢) د. فهمي جدعان: أسس التقدم عند مفكري الإسلام ـ دار الشروق للنشر والتوزيع ـ عمان.

داخل أوروبا وهزت العالم الصليبي باحتلالها للقسطنطينية عام ١٤٥٣م، ثم اتجهت بعد ذلك إلى العالم العربي المجزأ المضطرب المهدد فجعلت منه جناحها الثاني في آسيا وأفريقيا.

اتجهت الفتوحات العثمانية في أوائل القرن السادس عشر نحو الشرق العربي في عهد السلطان سليم الأول، وفي وقت كانت فيه الدولة الإيرانية الصفوية بقيادة السلطان شاه إسماعيل آخذه في التوسع، بينما كانت دولة المماليك في مصر وسوريا قد وهنت قواها من جراء حروبها مع المغول بشكل خاص. وكان هؤلاء قد عقدوا مع الصفويين معاهدة قطعوا بها علاقاتهم مع السلطان سليم، ولأسباب مختلفة، بعضها سياسي، وبعضها جغرافي استراتيجي، وبعضها ديني، وجه السلطان سليم حملة ضد إيران الصفوية، هزم جيشها ضامًا إلى الدولة العثمانية أناطوليا الشرقية، وشمال العراق، بما في ذلك كردستان، ثم لم يلبث أن جرد جيشًا كبيرًا قاده بنفسه عام ١٥١٦م وتوجه به إلى سوريا حيث التقى في سهل مرج دابق شمالي حلب بجيش السلطان المملوكي قانصوه الغوري فهزمه في أقل من نهار واحد، وقُتِلَ الغوري، بينما تابع الجيش العثماني زحفه محتلاً حمص وحماه ودمشق، ثم مجتازًا صحراء سيناء، ومشتبكًا مع المماليك في معركة الريدانية التي فتحت له الطريق إلى القاهرة، فدخلها عام ١٥١٧م منهيًا بذلك حكم المماليك لمصر وسوريا الذي دام قُرابة ثلاثة قرون (١٢٥٠-١٥١٧م)، وقد تلا ذلك احتلال الحجاز مع مكة والمدينة، ثم الطرق التي كان ينازعهم عليها الصفويين، وقد وطدوا حكمهم فيها.

أما أفريقيا العربية ــ خلا المغرب ـ فقد أصبحت مرتبطة بالدولة العثمانية أولاً بواسطة أمير البحر المجاهد خيرالدين باربا روسا الذي كافح الأسبان كفاحًا مجيدًا، ثمّ لمّا تعاظمت الأخطار الأسبانية والبرتغالية تدخلت جيوشها مباشرة وطالت الحرب بينها وبين أسبانيا، حتى تمكنت من إبعاد هذا الخطر، وجعل أفريقيا ولاية عثمانية (١٠٦٩هـ/ ١٦٥٩م)، إلى ثلاث إيالات.. الجزائر وتونس وطرابلس، يحكم كل واحدة منها وال يُلقب بـ (باشا) ثم تحولت إلى ولايات عسكرية، وذلك إلى حين الغزو الفرنسي للجزائر في عام ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م.

من منجزات الدولة العثمانية

يُثبت المؤرخون المنصفون أن الأثر الذي خلفته الفتوحات العثمانية في البلاد

العربية لم يكن أثرًا سلبيًا بالإجمال. وهو لم يصبح كذلك إلا في العصور المتأخرة حين ارتبط الوجود التركي بنزعات الاضطهاد للعرب التي بدأت بظهور التجمعات والدعاوي الطورانية المنفردة ووصلت إلى أوجها بإنفاذ أحكام القمع الجسدي في عدد من أحرار العرب عام ١٩١٦م على أيدي متطرفي جمعية الاتحاد والترقي الذين كانوا ينفذون تعاليم الماسونية والصهيونية العالمية.

والذي يميل المؤرخون إلى إثباته هو أن القبائل التركية حين دخلت العالم الإسلامي لم تأت غازية فاتحة كالغازي والفاتح الأجنبي إلى عالم حاول التصدي لها، أو كان في استطاعته أن يحمي نفسه ويحكم نفسه ويتطور بدونها، وأنه لولا هذه القبائل لما كان لهذا العالم أن يعيش بعد الانهيار العظيم الذي أصابه، أو على الأقل أن يتكون على الشكل الذي تكون فيه.

كما أن الدولة العثمانية بضمها لسوريا ومصر والحجاز والعراق وأفريقيا العربية في القرن السادس عشر، قد أدت خدمات عظيمة لم يكن إيقاف الخطر البرتغالي الأسباني، وحماية أفريقيا العربية من أوروبا الكاثوليكية بعد سقوط الأندلس أخطرها. فهناك بالإضافة إلى ذلك الحؤول دون التوسع الإيراني الشيعي في العالم السني - وإن كانت هذه القضية تظل قضية مذهبية خطورتها نسبية - غير أن الأهم والأخطر من هذا كله هو أن الدولة العثمانية قد خلقت في العالم العربي وحدة سياسية كانت قد زالت تمامًا بعد تفكك الدولة العباسية وهدمها ثم زوالها في منتصف القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي.

وأكثر من هذا أيضًا أنها حمت هذا العالم خلال أربعة قرون كاملة من الخطر الأوروبي، إذ ما كادت الدولة تدخل في مرحلة الضعف في القرن التاسع عشر حتى بدأت الدول الأوروبية - وخاصة فرنسا وانجلترا - تنفذ عمليًا مطامعها ومشاريعها الاستعمارية.

ولن تنسى الأمة المسلمة حماية سلاطين آل عثمان للأرض المباركة ومقدساتهم في بيت المقدس "فحينما فتح السلطان سليم الأول مصر عام ١٥١٧م/ ٩٢٤هـ أصدر فرمانًا بمنع اليهود من الهجرة إلى سيناء، فسد الطريق في وجوه اليهود إلى القدس الشريف، وكان السلطان عبدالحميد الثاني على نفس الطريق، فرفض بإباء وشمم منح اليهود

فلسطين، وقال عنها: "إنها أرض الأقصى التي رواها الأجداد والآباء بدمائهم، ولا يمكن التفريط فى حبة رمل من رمالها".

كما يُثبت هؤلاء المؤرخون

(١) أن السلطان سليم عندما عاد من مصر إلى إسلامبول بصحبته ألف جمل محملة بالذهب والفضة، فضلاً عما غنمه من التحف والسلاح العيني، والنحاس المكتشف، والخيول والبغال والجمال وغيرها، بالإضافة إلى طوائف الصناع المهرة، وأهل الفنون والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين والمهندسين والخجارين والفعلة، كان أمر لم يُقصد منه تفريغ مصر من خبرائها بقدر ما كان يُقصد منه الاستعانة بهذه الخبرات من أجل تطوير عاصمة الدولة.

(٢) أنه إذا ما استثنينا العهد المتأخر للدولة، فإننا نلاحظ أن العثمانيين كانوا على وجه العموم يمنحون المقاطعات العربية شيئًا من الاستقلال الذاتي، ويحلون بعض العرب في مكان بارز من الإدارة الداخلية، ومن النظام القضائي، والمؤسسات العسكرية للإمبراطورية.

(٣) صحيح أن اللغة العربية لم تكن اللغة الرسمية للدولة، إلا أنها بقيت لغة الشريعة، ولغة المعاهد الدينية التي تستقي مصادرها منها، كجامعة الأزهر في القاهرة، والمعاهد الدينية في بلاد الشام. وفي هذا رد وإنكار على من يقولون بأن العرب كانوا طوال أربعمائة سنة أمة مستضعفة تحت نير الأتراك، أو أن البلدان العربية قد نُهبت خيراتها وخيم عليها الفقر من جراء الحكم التركي. كما أنه ليس هناك دليل تاريخي قاطع على صحة ما يُشاع في القرن العشرين بأن الأتراك وحدهم المسؤولون عن التخلف وعن التأخر الحضاري الذي ألمّ بالأقطار العربية طوال أربعمائة سنة.

(٤) إن بعض البلدان العربية، وخاصة سوريا، قد أفادت من القرون الأولى من الحكم التركي، وأن مصائب العرب حتى في العصور التالية لم تكن متأتية من شدة الحكم التركي وقسوته، بقدر ما كانت نتيجة لعدم سطوة الحكم التركي وقدرته على إثبات وجوده، ذلك لأن العرب كانوا حتى منتصف القرن التاسع عشر يعانون من الانقسامات الداخلية والأنظمة القبلية، والتنافس بين العائلات التي كانت تتولى

الحكم، ويقاسون الشقاء بسبب مشاحناتهم الداخلية ضد الباشوات [1].

(٥) أن الدولة العثمانية قد ألزمت نفسها بأن لا تكون دولة الأتراك فقط، وإنما بحكم قيامها على نظام للحكم إسلامي للإسلام والمسلمين أيضًا، بمعنى أنها كانت تعتبر أن هدفها هو تقدم الإسلام وحمايته ضد أي خطر خارجي، وهي على الرغم من الاعتراضات الكثيرة والانتقادات المريرة التي وجهها عدد من مفكري العرب، فإنهم أنفسهم كانوا ينظرون إليها على أنها دولة الخلافة الإسلامية، وأنهم شركاء في الحكم، ولم يتزعزع هذا الشعور عندهم إلا بعد ما شهدوا دعاوى الطورانيين، ومن محاولة دمج العنصر العربي وتتريكه بعد الاستيلاء على مقاليد الحكم من قبل الاتحاديين إثر انقلاب عام ١٩٠٨م.

مآخذ على السياسة التركية العربية خاصة. وفي السياسة التركية العثمانية عامة

يرى البعض من المؤرخين:

(١) أن الأتراك لم يسعوا بجد لتطوير الأقطار العربية، وإنما تركوها على حالها ضحية لمشاكلها المزمنة، وللأنظمة الاجتماعية والإقطاعية الظالمة.

(٢) أنه بسبب الحروب التي خاضوها في أوروبا، قد أرهقوا هذه الأقطار بما كانوا يستأصلون من ضرائب، وبما كانوا يزودون به الجيوش المحاربة من جند هذه الأقطار. ويتساءل البعض عن الأسباب التي دفعت الدولة العثمانية إلى استنزاف أقطار الدولة في هذه الحروب التي كانت نتيجة توسع في البلدان الأوروبية لم يصحبه أي جهد يُذكر لنشر دعوة الإسلام، ولم يخلف وراءه أي أثر يُذكر للإسلام، ولم يكن في نهاية الأمر إلا جهدًا عسكريًا خالصًا أو شبه خالص تحمل الإسلام والمسلمون أنفسهم آثاره التاريخية المعروفة.

(٣) يتساءل البعض عن الحكمة في السكوت عن أمر تعريب مؤسسات الدولة، وعدم الاكتراث الكامل لهذه المسألة في نظام سياسي يأتمر بدين لا ينفك عن اللغة التي جاء بها، وأنها على الرغم من ربط أنظمتها بالشريعة الإسلامية، قد تجنبت عن

---

(١) المصدر السابق نقلاً عن زين نورالدين زين ـ نشوء القومية العربية مع دراسة تاريخية في العلاقات العربية التركية ـ ط٢ بيروت ١٩٧٢ ـ ص٢٦-٢٨.

عمد جعل اللغة العربية لغة رسمية للدولة.

ويرد البعض فيقول:

ومهما يكن من أمر فإن العالم العربي كان جزءًا من الدولة العثمانية، واجه ما واجهت، وعانى ما عانت، وحين سقطت الخلافة أصبح العالم العربي ممزقًا مفتتًا مستعمرًا ضعيفًا متخلفًا. وكان يوم سقوط الخلافة هو يوم سقوط الغطاء الشرعي لوحدة الأمة، وثقلت على الأمة العصور الحديثة بتحدياتها، وضاقت عليها الأرض بما رحبت.

كان سقوط الخلافة العثمانية أشبه بسقوط الأندلس قبل خمسة قرون.

عندما كانت الإمبراطورية العثمانية دولة قوية في بداية نشأتها، وقامت بتوسعاتها في أوروبا، فإننا نجد أن معظم الدول الأوروبية قد بدأت تتكتل ضد هذا الخطر من جانب دولة إسلامية شرقية وكانت نظرة أوروبا تجاه الدولة الناشئة المتوسعة نظرة دينية لازالت قائمة على مدى العلاقة بين المسيحية والإسلام، حيث لم تكن الحروب الصليبية التي قامت في العصور الوسطى قد غابت بعد عن الأذهان، إذ كان همُّ أوروبا حتى نهاية القرن السادس عشر هو التكتل والوقوف ضد الخطر العثماني، وإنقاذ الدول الأوروبية من السيطرة العثمانية. وبذلك فإننا نجد أن قوات السلطان سليمان قد فشلت في الاستيلاء على مدينة فينا التي وصلتها في ٢٧ سبتمبر عام ١٥٢٩م، وسرعان ما انسحبت منها في ١٥ أكتوبر، ولقد قام العثمانيون بمحاولة أخرى في مدى قرن ونصف، أي في عام ١٦٨٣، ولكنه فشلوا أيضًا. وبذلك أوقفت أوروبا التقدم العثماني، وتقدم النمساويون وحلفاؤهم إلى المناطق العثمانية في المجر واليونان وسواحل البحر الأسود.

يقول أبوالحسن علي الندوي [1]:

"رغم العلل التي وُصفت بها الدولة العثمانية تسجيلاً للواقع وأمانة للتاريخ، فلا شك أنها كانت - على علاتها الأخيرة - حصنًا منيعًا للإسلام، وسورًا قويًا للأقطار العربية الإسلامية الواقعة في الشرق الأوسط بما فيها الحجاز، وفلسطين، يمنع من تدخل القوى الأجنبية الغربية في هذه البلاد وعبثها بها، عبث اللاعب بكرة القدم، واعتدائها على مقدساتها.

وقد بقي الوضع على ذلك إلى عهد السلطان عبدالحميد خان، رغم ما قيل عنه

(١) أبوالحسن الندوي - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين - ص١٧٠ - دار السلام للطباعة والنشر.

وأشيع، فقد أخفقت كل محاولة مسيحية، وكل مؤامرة يهودية، ضد المقدسات الإسلامية في عهده، حتى نشبت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨م، واستطاع الحلفاء أن يضموا العرب إلى معسكرهم، ويثيروهم على الأتراك، ونشأت فكرة القومية العربية، وانفصلت الأقطار العربية عن الإمبراطورية العثمانية، وصبحت دولاً وإمارات كبيرة وصغيرة، وعاشت تحت الانتداب مدة طويلة، ثم استقلت، ولم تبق يد قوية تحميها، ولا سطوة عالمية تُخْشَى وتُرْهَب، وقامت إسرائيل في حضانة القوى الأوروبية الكبرى وحمايتها في قلب العالم العربي، واستطاعت أخيرًا أن تستولي على الضفة الغربية وشبه جزيرة سيناء، وأن تمتلك القدس الشريف لأول مرة في التاريخ، والعالم العربي لا يملك دفعاً ولا منعًا، ويردد المثل العربي القديم: "أُكِلتُ يوم أُكِلَ الثور الأبيض" (١).

لقد كانت نهاية الإمبراطورية العثمانية ـ وخاصة في الشرق ـ أكبر انتصار للصليبية الأوروبية، واليهودية العالمية، وقد تركت فراغًا لم يُملأ"

يقول العلامة الندوي (٢):

تفرد الشعب التركي المسلم تحت قيادة آل عثمان بمزايا اختص بها من بين الشعوب الإسلامية يومئذ، واستحق بها زعامة المسلمين:

أولاً: أنه كان شعبًا ناهضًا متحمسًا طموحًا، فيه روح الجهاد، وكان سليمًا ـ بحكم نشأته وقرب عهده بالفطرة والبساطة في الحياة ـ من الأدواء الخلقية والاجتماعية التي أصابت الأمم الإسلامية في الشرق في مقتلها.

ثانيًا: أنه كان متوافرًا لديه القوة الحربية التي يقدر بها على بسط سيطرة الإسلام المادية والروحية، ويرد بها غاشية الأمم المناوئة وعاديتها، ويتبوأ بها قيادة العالم، فعنوا بفن الحرب وتنظيم الجيوش، حتى صاروا أئمة بغير نزاع، والمثل الكامل، والقدوة لأوروبا.

وكانو يحكمون في ثلاث قارات.. أوروبا وآسيا وأفريقيا، وملكوا الشرق الأوسط من فارس حتى مراكش، ودوخوا آسيا الصغرى، وتوغلوا في أوروبا، حتى بلغوا أسوار

(١) كلمة قالها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، يشير إلى قتل عثمان بن عفان ﷺ (عن مجمع الأمثال للميداني).

(٢) أبوالحسن الندوي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ ص١٦٠.

فينا، وكانوا سادة البحر المتوسط من غير منازع.. جعلوه بحيرة عثمانية لا أثر للأجنبي حوله، وقد كتب معتمد القيصر بطرس الأكبر لدى الباب العالي أن السلطان يعتبر البحر الأسود كداره الخاصة، لا يُباح دخوله لأجنبي، وأنشأوا أسطولاً عظيمًا لا قِبل لأوروبا به حتى اجتمعت لسحقه، روما والبندقية وأسبانيا والبرتغال ومالطه عام ٩٤٥هـ/ ١٤٥٧م ولكن لم تغن عنهم كثرتهم شيئًا.

دخل الأسطول العثماني موانـي العالم القديم، وكانت أوروبا كلها ترتعد منهم وتخشاهم، وكانت تمسك عن قرع أجراس كنائسها احترامًا للترك إذا نزلوا بها.

الدولة العثمانية فى عصور الانحطاط :

تقول "خالدة أديب" (١):

"في الوقت الذي بدأ الغرب في دراسة علوم الطبيعة في مدارسه وجامعاته، وأصبحت أوروبا مركزًا للعلوم الحديثة، وكان القسس الكاثوليك والبروتستانت فيها يشاركون في العلوم الحديثة. كان العلماء في تركيا العثمانية على الضد من ذلك، فلم يعنوا باكتساب العلوم الحديثة، وتغلب الجمود على نظامهم التعليمي فأصيبوا بالتجدب العلمي وشبه الشلل الفكري".

"كان من سوء حظ المسلمين ـ فضلاً عن سوء حظ الأتراك ـ أن أخذ الترك في الانحطاط، ودب فيهم ما دب فيمن قبلهم من الأمم من استبداد الملوك وجورهم، وسوء تربيتهم، وفساد أخلاقهم، وخيانة الأمراء وغشهم، وإخلاد الشعب إلى الدعة والراحة، وكان شر ما أصيبوا به الجمود في العلم، والجمود في صناعة الحرب وتنظيم الجيوش، وقد نسوا قول الله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمونَهُمْ﴾ (٢).

كان خليقًا بهم ـ لحرج مركزهم السياسي والجغرافي، وقد أحاطت بهم الدول الأوروبية إحاطة السوار بالمعصم ـ أن يجعلوا وصية القائد الإسلامي عمرو بن العاص

(١) خالدة أديب ـ محاضرات في الجامعة الملوه عن صراع الشرق والغرب في تركيا. (أبوالحسن الندوي ـ المرجع السابق).
(٢) الأنفال ٦٠.

ﷺ للمسلمين في مصر نصب أعينهم: "واعلموا أنكم في رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى داركم".

ولكن الترك وقفوا، وتقدم الزمان" (١).

تركيا الفتاة

"رأى بعض رجال تركيا الفتاة أن الإسلام دين طارئ غريب لا يصلح للترك، وأن الأولى بهم أن يرجعوا إلى وثنيتهم الأولى قبل اعتناق آباؤهم الدين الإسلامي، وأنه لابد من إصلاح ديني يوافق طبائعهم" (٢)، "ورأى البعض الآخر أنهم أتراك واتخذوا من طوران كعبة لهم، وتغنوا بمدائح جنكيزخان، ونظموا الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكيزية ليطبعوهم على الإعجاب بها.

وكما حصل عند الترك، حصل عند الفرس، وصار ناشئتهم يبحثون عن أديانهم القديمة، كالزرادشية والمانوية والمزدكية التي كانت تدعو إلى الإلحاد والإباحية" (٣).

يقول العلامة الندوي (٤)

سرت عدوى القومية إلى العرب آخر القرن التاسع عشر الميلادي، وهم الذين ظلوا ثلاثة عشر قرنًا يدعون إلى الأخوة البشرية، والمساواة الإنسانية، بحكم تعاليم دينهم الذي اختارهم الله لهم، وامتزج بدمائهم ولحومهم، وأصبحت لهم طبيعة لا تفارقهم، وذلك بحكم عوامل، بعضها داخلية، وبعضها خارجية أجنبية.

من أهم العوامل الداخلية، الكبرياء القومية، التي تظاهر بها بعض الحكام الأتراك، والعطرسة التي ظهرت في بعض معاملاتهم وتصرفاتهم، والتي كانت تشعر كثيرًا من العرب، الذين عندهم حساسية زائدة بأنهم أمة من الدرجة الثانية. فأثار ذلك في العرب النقمة والنخوة العربية، وأضرمها، وعمل على تعميق جذورها بعض كبار المثقفين المسيحيين، الذين لم تربطهم بالأتراك رابطة العقيدة والدين والإخاء الإسلامي بطبيعة

(١) المرجع السابق.
(٢) من محاضرات خالدة أديب هاتم في الجامعة المالية بدلهي.
(٣) الأمير شكيب أرسلان ـ حاضر العالم الإسلامي ـ الجزء الأول.
(٤) انظر أبوالحسن الندوي ـ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ـ ص٢١٦-٢٢٠ ـ الطبعة التاسعة.

الحال، وتلقوا الثقافة الغربية، التي قد سرى في أدبها وشعرها، وفلسفتها وسياستها تمجيد العنصر والجنس والفكرة القومية.

وجاءت **العوامل الأجنبية**، فانتهز دهاة الغرب والقادة السياسيون، الذين كانوا يحلمون من القديم بانهيار الإمبراطورية العثمانية، وانفراط عقدها، وزوال سلطانها، ونفوذها الروحي والسياسي من الشرق، فاحتضنوا هذه الفكرة التي قد دب دبيبها في عروق بعض الشباب العرب الطامحين، و بدأوا يغزونها بكتاباتهم ومؤلفاتهم، ورحلاتهم وجولاتهم، في المدن العربية الكبرى، واتصالاتهم بقادة الرأي، وحملة الأقلام، ورؤساء القبائل والطوائف في العالم العربي، ويوحون إليهم - متقنعين بالحب للعرب والدفاع عن حقهم - بنقل مركز الخلافة من الآستانه التي اغتصبته في القرن العاشر الهجري، إلى مكانها الشرعي الطبيعي في أحد الحرمين الشريفين، أو إحدى عواصم الأقطار العربية الإسلامية، وكيف تسربت هذه الفكرة إلى عقول العرب، وكيف بدأت تعمل عملها، وماهو الدور الذي لعبة المفكرون الغربيون في ولادتها، ثم في إرضاعها، وتغذيتها، ونقلها من مكان إلى مكان؟

نقرأ ذلك واضحًا في ما ننقله من كتاب "مستقبل الإسلام Future of Islam الذي ألفه المستر ولفرد بلنتي عام ١٨٨٢م: إن مركز الدين وعاصمته في جزيرة العرب، وهي مهد الإسلام، ومهبط الوحي والإلهام، وهي البلد الوحيد الذي يتمتع بجميع صفات الحكم الديني، ويستطيع أن يزاوله إلى أبعد الحدود، ولا يوجد فيها المسيحيون واليهود، فيضطر إلى خلاف معهم ونزاع، ولا هو ببلد خصب غني يسيل عليه لعاب الدول الغربية، والخليفة هناك لا يخشى إنذار سفير إنجليزي أو فرنسي وتهديد مبعوث أجنبي، إنه يستطيع أن يتصرف بحرية شأن نائب الرسول، ويكون الإسلام صافيًا نقيًا من جميع الشوائب والأدران، لذلك كله من المحتمل أن تعود الخلافة إلى أهلها في مكة أو المدينة.

إن نقل العاصمة الروحية من القسطنطينية إلى مكة عملية طبيعية سهلة، لا تغير في الأفكار والمعتقدات الراهنة للجمهور، ويتفق مع آراء العلماء واتجاهاتهم كل الاتفاق.

إن مكة والمدينة هي المأوى الشرعي والملاذ الروحي لأهل الحل والربط، وستكونان مركز القوة الروحية، وقد وافق عل هذا الرأي كل من تحدثت إليه في هذا الموضوع، وآمنوا بأن جميع العلماء سيوافقون على هذه الفكرة عدا أصدقاء تركيا، أما أنا

فإني أرى أن مكة هي المقر الرئيسي للخلافة. كنّا نسمع منذ زمان هذه الجملة السائرة، أن "رومة هي العاصمة"، كذلك جملة "مكة هي العاصمة" تؤثر تأثيرًا بالغًا في الأذهان، فإذا أضيف إليها "أن الخلافة في قريش" فإنه يثير على أقل تقدير اهتزازًا ونشوة في العرب الأقحاح.

إن العنصر العربي بلا شك يؤيد مثل هذا الخيار، ولا يغيب عن بالنا أن منطقة نفوذ العرب تمتد من مراكش إلى بوشهر، كما يقع في هذه المنطقة مسلموا الهند والملايو، بل إن كل عنصر إسلامي أينما كان يدور في هذه الفلك، ماعدا الأتراك الذين لا يزالون يفقدون أهميتهم على مر الأيام"

ويمضي الندوي فيقول:

ونشبت الحرب الأولى ١٩١٤-١٩١٨م. وسنحت للأقطار العربية فرصة الانشقاق على الإمبراطورية العثمانية، وانتهز الحلفاء هذه الفرصة الذهبية، فنفخوا في الحربة القومية، وقام لورانس الداهية بدوره، فأشعل الحماس القومي، وأثار العرب على الأتراك، وثار الشريف حسين في الحجاز، وأهل الشام في الشام، وفضلوا الانضمام إلى راية الحلفاء على البقاء إلى جوار الأتراك المسلمين. الذين كانوا رمز قوة الإسلام وشوكته، ونتاسوا نصوص القرآن والسنة في هذه القضية، واعتمدوا على الوعود الخلابة، والسياسة المتقلبة، التي لا تعرف إلا المصلحة، ولا تعبد إلا القوة، وكان من قيام الحكومة العربية الهاشمية في سوريا، ثم نقض الحلفاء للعهود،وتجاهلهم لها بتاتًا، وانهيار هذه الحكومة السريع.

السلطان عبدالحميد الثاني السلطان الشهيد

(١٢٥٨-١٣٣٦هـ/ ١٨٤٢-١٩١٨م)

تذكر كتب التاريخ أن عهد السلطان عبدالحميد الثاني قد تميز بالظلم والاستبداد، وكبت الحريات، وملاحقة الأحرار والقسوة على الأتراك والعرب [١]، وأنه سعى لتوطيد

(١) انظر كتب المواد الاجتماعية، فريق خبراء مؤسسة جيوبرجكتس ـ وزارة التربية ـ البحرين ـ طبعة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م، ص١٤٨-١٤٩ للصف الثالث الإعدادي، وتاريخ العرب الحديث والمعاصر للمرحلة الثانوية.

سلطانه إلى كبت كل نزعة إلى الحرية في الإمبراطورية العثمانية بواسطة جهاز من الجاسوسية معقد واسع التشعب، وأنه عطل الدستور الذي وضعه مدحت باشا بعد أن أقاله من منصبه كصدر أعظم ونفاه، وأنه أبى القيام بأي إصلاح على النمط الأوروبي، وأخذ بأرذأ أساليب الطغيان الشرقي، بل إنه استغرقه استغراقًا متعاظمًا يومًا بعد يوم، في جو من أحلام اليقظة الوهمية، مؤكدًا في المحل الأول على مقامه الديني كخليفة ، رجاة أن يبسط سلطانه ، من هذه الطريق على جميع المسلمين[1].

أتى السلطان عبد الحميد إلى الحكم في فترة مضطربة جدًا من تاريخ الدولة العثمانية، والأوضاع كانت تغلى فى البلقان، والثورات قائمة فى البوسنة والهرسك والجبل الأسود وبلغاريا، والدول الأوربية وروسيا تؤجج هذه الثورات وغيرها، وتمدها بالمال والسلاح وبالمتطوعين، وتضغط بذلك على الدولة العثمانية التى بقيت وحيدة أمام هذه الدول جميعاً. ومن جهة أخرى كانت فرنسا قد خرجت خاسرة من حربها مع ألمانيا سنة ١٨٧٠م لذلك فقد تضعضع وضعها وضعف تأثيرها فى أوروبا، أما انجلترا فقد كان اهتمامها متوجهاً إلى مستعمراتها، وإلى مشاكلها الداخلية، ولا تبدي إلا اهتمامًا قليلاً بالمشاكل الأوروبية، مما أدى إلى تعاظم روسيا وألمانيا والنمسا في القارة الأوربية. بدأت القلاقل في قرية من قرى الهرسك في الأسبوع الأول من أغسطس سنة ١٨٧٥م، وسرعان ما انتشرت إلى جميع أنحاء الهرسك والبوسنة. ولم تقف الدولة العثمانية مكتوفة الأيدي إذ أرسلت جيوشها لقمع هذه الثورات. ولكن ما لبثت الدول الأوروبية أن تدخلت تدخلاً سافرًا، واندلعت الثورة في بلغاريا والجبل الأسود، وانتشر الدم والدمار في كل مكان. إذ أصبحت القرى المسلمة تُهاجم ويُذبح سكانها، وتُنسف الجسور وأعمدة التلغراف. وهنا لم تجد الدولة العثمانية بدًا من إرسال جيش قوامه ١٨ ألف جندي إلى مناطق العصيان، وأحرزت الجيوش العثمانية انتصارات كبيرة على الصرب في أواخر شهر أغسطس عام ١٨٧٦م، وهو نفس الشهر الذي تسلم فيه السلطان عبدالحميد المسئولية العظمى في أحلك أدوار التاريخ التركي وأكثرها صعوبة.

تقول الكاتبة الأمريكية Elizabeth Warmely Leatimer: "أثبت هذا السلطان

---

(١) كارل بروكمان - تاريخ الشعوب الإسلامية - ترجمه نبين امين فارس ومنير البعلبكي ص ٥٨٩ ص ٥٩٠ - دار العلم للملايين - بيروت الطبعة الأولى ١٩٤٨

في مدة قصيرة أنه سياسي من الدرجة الممتازة، حيث أدار الإمبراطورية العثمانية الواسعة التي كانت مشرفة على الزوال إدارة ممتازة، وبدأ بإصلاحها وترقيتها".

ويصف البروفيسور "أرمينيوس واميري" رئيس جامعة بودابست السلطان عبدالحميد فيقول: "إرادة حديدية، عقل سليم، عيون معبرة ومؤثرة، شخصية وخلق وأدب رفيع جدًا يعكس التربية العثمانية الأصيلة.. هذا هو السلطان عبدالحميد. ولا تحسبوا معلوماته الواسعة تخص الإمبراطورية العثمانية المنهكة، فمعلوماته حول أوروبا وآسيا وأفريقيا بل حتى حول أمريكا معلومات واسعة، وهو يراقب عن كثب جميع الحوادث في هذه الأماكن.. والسلطان متواضع ورزين إلى درجة حيرتني شخصيًا. وهو لا يجعل جليسه يحس بأنه حاكم وسلطان كما يفعل الملوك الأوربيين في كل مناسبة.. يلبس ببساطة ولا يحب الفخفخة، أفكاره عن الدين والسياسة والتعليم ليست رجعية، ومع ذلك فإنه متمسك بدينه غاية التمسك، ويرعى العلماء ورجال الدين، ولا ينسى بطريق الروم وبطريق الأرمن من عطاءاته الجزيلة.

إن بعض ساسة أوروبا يريدون أن يصوروا السلطان عبدالحميد عدوًا متعصبًا ضد المسيحيين، وليس هناك ادعاء فارغ أكثر من هذا الادعاء، لأن القول بأن السلطان الذي يختار لوزارة مالية الإمبراطورية، ولرئاسة أطباء القصر السلطاني أشخاصًا مسيحيين من رعاياه، ويُعطي مثل هذه المناصب المهمة لغير المسلمين من الروم والأرمن، هو شخص متعصب ضد المسيحيين هو كذب، وتصرف لا أخلاقي وبعيد عن الحقيقة.

إنني أستطيع أن أقول بكل ثقة: إذا استمر الأتراك بالسير في الطريق الذي رسمه هذا السلطان، إذا لم يظهر عائق سياسي فإنهم سيسترجعون مجدهم وقوتهم السابقة، وأكثر من هذا فإنهم سيصلون إلى مستوى الدول الأوروبية في مجال الثقافة والاقتصاد في مدة قصيرة [1]".

... والأمة تتقدم الآن نحو عهد جديد، فهناك تقدم واضح في الأدب واللغة، إن على منضدتي وأنا أكتب هذا الكتاب عدة مؤلفات تركية عن الاقتصاد والتاريخ والفلك والجغرافيا طُبعت بأمر السلطان وأرسلت إلى لتدقيقها، وهي في الحقيقة كتب جديرة

(١) انظر أورخان محمد علي ـ السلطان عبدالحميد الثاني.. حياته وأحداث عهده ـ دار الوثائق ـ الكويت.

بالاهتمام والتقدير، فقد استقت أحدث المعلومات العلمية من أوروبا كي توزع على المدارس والشعب. ومن البديهي أن الدولة العثمانية تحتاج لنهوضها إلى إنجاز أمور كثيرة.. ولكن السلطان عبدالحميد شاهد وفهم كل هذه الأمور، وهو يعمل جاهدًا لرفع مستوى شعبه من الناحية المادية والروحية [1].

صوره الأعداء من اليهود والأرمن والاتحاديين بصورة السفاح، حتى أن الأرمن أطلقوا عليه لقب (السلطان الأحمر Sultan Rouge)، وأطلق عليه جلادستون صفة "المجرم الكبير The great criminal". وفي العالم العربي كيلت له التهم نفسها، فقد صوره الكاتب القبطي الماسوني جرجي زيدان في كتابه "الانقلاب العثماني" سفاحًا يقتل ضحاياه ويقذف بهم في بحر مرمرة [2].

تذكر المصادر التاريخية الموثوقة أن صفة الرحمة كانت أبرز صفة عنده، بل لعل صفة الرحمة الزائدة عن الحد الصحيح كانت أبرز نقطة ضعف عنده، والتي أدت في النهاية إلى عزله عن السلطنة.. كان يبدل أحكام الإعدام التي يصدرها القضاة إلى السجن المؤبد.

السلطان عبدالحميد ومواجهة الاستعمار والصهيونية

بعد ظهور الصهيونية كحركة سياسية ودينية وفكرية، وتبلورها وذيوع أخبارها بعد المؤتمر الصهيوني الأول الذي عقد سنة ١٨٩٧م في مدينة بال بسويسرا، نشطت الدعوة إلى جمع اليهود وتهجيرهم إلى فلسطين، لتثبيت موضع قدم لهم هناك، تمهيدًا لتحقيق أطماعهم المنشودة.

ولما كانت فلسطين تقع آنذاك ضمن أملاك الدولة العثمانية، فقد اتجهت أنظار ومحاولات زعماء اليهود إلى السلطان عبدالحميد لعله يوافق على مقترحاتهم العديدة لتشكيل نواة صغيرة في فلسطين، أو فيما يجاورها، كخطوة أولى تتبعها خطوات أخرى نحو الوصول إلى الهدف النهائي، ولم يكن هرتزل أول من بذل مساعيه لدى السلطان في هذا الموضوع، فقد أرسلت جمعية أحباء صهيون أحد أعضائها وهو لورنس

(١) نفس المصدر عن Marti faciasi ص٦١-٦٣.
(٢) د. محمد محمد حسين ـ الاتجاهات الوطنية ـ ج١ ص٣٤.

أوليفانت Laurence Oliphant إلى السلطان عبدالحميد، تعرض عليه جهود اليهود في تعمير تركيا، وتجديد شبابها، مقابل السماح لهم بالاستيطان في شرق الأردن وسوريا الجنوبية، فرفض السلطان قائلاً:

"إن اليهود يستطيعون العيش بسلام في أي جهة من المملكة إلا في فلسطين، لأن الدولة العثمانية ترحب بالمضطهدين، ولكنها ترفض مساعدة اليهود في إقامة مملكة لهم في فلسطين أساسها الدين".

كما تقدم السير صموئيل مونتاجو - عضو البرلمان البريطاني عن حزب الأحرار وكان رئيسًا للمؤسسة اليهودية أحباء صهيون في بريطانيا - إلى السلطان باقتراح مشابه سنة ١٨٩٣م فرفض طلبه كذلك.

وفي عام ١٨٩٥م ألف تيودور هرتزل - أبرز شخصية يهودية آنذاك في مجال السعي لإقامة الدولة الصهيونية - كتابًا بعنوان "الدولة اليهودية"، ونشره في عام ١٨٩٦م، وكان له تأثير كبير وصدى واسع في أوساط اليهود، لذا نجح في عقد المؤتمر الصهيوني الأول سنة ١٨٩٧م.

كان السلطان عبدالحميد يرصد جميع التيارات الفكرية والسياسية في أوروبا بدقة قبل المؤتمر الصهيوني، بل قبل قيام هرتزل بكتابة كتابه المعروف، والدليل على ذلك الفرمانات الثلاثة المتعاقبة التي أصدرها السلطان سنة ١٨٩١م ومنع بموجبها هجرة اليهود إلى فلسطين وقيد وحدد زياراتهم إلى القدس [١].

الفرمانات التي بموجبها منع السلطان هجرة اليهود إلى فلسطين

- **الفرمان الأول:** [إن قبول الذين طردوا من كل مكان، في الممالك العثمانية سيؤدي في المستقبل إلى تشكيل حكومة موسوية، لذا فإن إجراء هذه المعاملات غير جائز، وبخاصة أن الممالك الشاهانية ليست من قبيل الأراضي الخالية والمتروكة، ولما كان من المفروض إرسال هؤلاء إلى أمريكا، لذا فلا يقبل هؤلاء ولا أمثالهم، بل يجب وضعهم في السفن فورًا لإرسالهم إلى أمريكا، وأن يتخذ مجلس الوزراء

(١) انظر أورخان محمد علي - السلطان عبدالحميد الثاني - ص٢٤٧-٢٥٩.

قرارًا قطعيًا بخصوص تفاصيل هذا الأمر، وعرضه علينا، إذ ما الداعي لقبول من طردهم الأوربيون المتمدنون ولم يقبلوهم في ديارهم. وفضلاً عن ذلك فإن هناك دسائس كثيرة، لذا فإن هذا الأمر غير جائز على الإطلاق.

وبناءًا على ذلك، وحتى لا يبقى هناك أي مجال بعد الآن لأية معروضات أخرى في هذا الخصوص. تُعاد هذه المذكرة للصدارة العظمى لاتخاذ قرار عام في هذا الموضوع].

- **الفرمان الثاني:** (أصدره السلطان بعد سبعة أيام من الفرمان الأول إلى اللجنة العسكرية للمعية السنية)، [إن قبول هؤلاء الموسويين وإسكانهم أو إعطائهم حق المواطنة شيء ضار جدًا، فقد يتولد عن هذا في المستقبل مسألة حكومية موسوية، لذا يجب عدم قبولهم، وأن يؤخذ هذا في الحسبان عند عرض المسألة، وأن يُعرض هذا القرار بسرعة هذا اليوم، وأن تعطى المعلومات للصدارة العظمى من السكرتارية الخاصة].

- **الفرمان الثالث:** (بعد يوم واحد من الفرمان الثاني)، [لا يحق لأية دولة أن تعترض على عدم قبولنا الموسويين الذين طردتهم دولة متمدنة ولم تقبلهم الدول المتمدنة الأخرى، وهؤلاء الذين يحتجون ويعترضون علينا كان الأحرى بهم الاحتجاج على الدول التي طردتهم ورفضت قبولهم.

وبناءً عليه، فإن هؤلاء الموسويين لو أُسكنوا في أي مكان (من أجزاء الإمبراطورية) فإنهم سوف يتسللون إلى فلسطين شيئًا فشيئًا مهما اتخذت من تدابير، وسيسعون لتشكيل حكومة موسوية بتشجيع وحماية الدول الأوروبية، ولن يعمل هؤلاء في الزراعة والفلاحة، بل سيحاولون الإضرار بالأهالي كما فعلوا في البلدان التي طردوا منها. ومادام هؤلاء بصدد الهجرة إلى أمريكا، إذن فإن من المناسب أن يُهاجروا إلى هناك، ونرى وجوب المذاكرة بشكل مفصل في هذا الموضوع في اللجنة العسكرية] [1].

(١) المصدر السابق ص٢٥٧-٢٥٩ (نقلاً عن Mart Faciasi ص٤٣-٤٥).

التعليمات التي أصدرها السلطان حول زيارة اليهود لمدينة القدس سنة ١٩٠٠م

المادة الأولى : لابد للموسويين سواءً أكانوا من رعايا الدولة العلية، أو من الممالك الأجنبية ـ الذين يذهبون إلى فلسطين لأجل الزيارة أن يحملوا معهم تذكرة مرور ـ أو جواز سفر تتضمن صفة وغاية السياحة وتابعية حاملها.

المادة الثانية : على جميع هؤلاء الزوار الموسويين الذين يصلون ولاية بيروت أو إلى أي ميناء من موانئ ولاية القدس الشريف إيداع تذاكر مرورهم أو جوازات سفرهم لدى موظف الجوازات، والحصول ـ مقابل قرش واحد ـ على تذكرة زيارة أو إقامة مؤقتة لمدة ثلاثة أشهر في فلسطين، ولتيسير تمييز هذه التذاكر عن غيرها يجب أن تكون بلون وشكل مميز، ويجب إبراز هذه التذكرة لموظفي الدولة وللشرطة عند الطلب في أثناء السياحة أو الإقامة، ويُخرج بقوة الشرطة، أو بواسطة قنصل الحكومة المنتسب إليها كل من يتجاوز هذه الأشهر الثلاثة.

المادة الثالثة : يجب تنظيم قائمة بمتدرجات وتواريخ تذاكر الإقامة المؤقتة للزوار الموسويين المذكورة في المادة السابقة، وتنظيم هذه القوائم في نهاية كل شهر ليتسنى إخراج الذين يتجاوزون هذه المدة. وكذلك معاقبة الموظفين الذين يتهاونون في هذا الخصوص.

المادة الرابعة : إذا ظهرت في الجداول المنظمة لأمور السياحة والإقامة أية مخالفة لدى الزوار الذين يكملون المدة المسموحة لإقامتهم أو سياحتهم ويتركون أرض فلسطين، أو يأتون ميناء بيروت لركوب البواخر، أو ينهون مدة إقامتهم، أو الذين يزودون بوثائق المرور ووثائق الإقامة فيجب اتخاذ إجراءات حازمة ضد المخالفين وضد الموظفين المسئولين عن تطبيق هذه التعليمات [١].

تيودور هرتزل والسلطان عبد الحميد:

اتصل تيودور هرتسل Theodore Herzel بالسلطان عبدالحميد الثاني. وقدم إليه مقترحاته المغرية التي تتلخص في:

(١) نفس المرجع السابق ص٢٥٩-٢٦٠ (نقلاً عن Yahudiler Dunyayi Nasil Istila Ediyorlar ص٤٦-٤٨).

(١) مساعدة السلطان على إنشاء أسطول بحري.
(٢) معاضدته في سياسته الأوروبية.
(٣) إنشاء جامعة عثمانية في القدس تغني عن الذهاب إلى جامعات أوروبا، وبذلك لا يتعرض الطلبة إلى تشرب النزعات الجديدة.
(٤) تحسين أوضاع السلطنة العمرانية.
(٥) عقد قرض مالي لتغطية تكاليف المشروعات المقررة.

مقابل منح اليهود حق استيطان فلسطين، وإقطاعهم جزءًا من أرضها المهملة.

تمت المقابلة الأولى مع السلطان في مايو ١٨٩٦م، والثانية في أغسطس ١٩٠٢م، وفي كلا الحالتين أخفق هرتسل في إقناع السلطان، وعجز عن الحصول على أي وعد يُسَهِّل له مهمته الخادعة. رغم المغريات الكبيرة، والوساطات العديدة، والأموال الكثيرة التي بذلها لحاشية السلطان، واعترف هرتسل أنه قدم الرشوة للوزراء وعجزت جميع دسائسه ومحاولاته عن زحزحة السلطان عبدالحميد، فظل ثابتًا أمام المغريات، وكان آخر جواب فاه به أمام هرتسل ما نصه:

"إن فلسطين ليست ملكًا لي، وإنما هي ملك شعبي، لا يحق لي التصرف بها، ولا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من أرض فلسطين، التي قاتلت أمتي في سبيلها، وروت تربتها بدماء المسلمين. أسمح كليا بالهجرة إلى أي جزء من السلطنة باستثناء فلسطين.." (١).

وأرسل السلطان من يقول لهرتسل أن أحلامه لا يمكن أن تتحقق إلا على أنقاض السلطنة، وينصحه أن يحتفظ بملايينه لأنه ـ أي السلطان ـ يفضل المبضع في جسمه ولا تقطع فلسطين من جسم السلطنة العثمانية، وأنه حين تتجزأ الإمبراطورية الإسلامية فإن اليهود يأخذون فلسطين بلا مقابل.

وحينما أدرك اليهود ثبات السلطان رحمه الله في وجه أطماعهم زادوا من تآمرهم لإسقاطه، واستعانوا بالقوى الشريرة في الوطن العربي والعالم، والتي نذرت نفسها لتمزيق

(١) عبدالله التل ـ جذور البلاء ص١٥٠ نقلاً عن:
Iosef Patai, Star over Jordan, the life and calling of theodore Herzel.

ديار الإسلام، وأهمها الماسونية والدونمة، والجمعيات السرية "الاتحاد والترقي"[1]، التي كان وصولها إلى الحكم من أبرز نجاحات الماسونية الدولية في تاريخها، والخطوة الأولى الكبرى التي خطتها لاستلاب أرض فلسطين.

مصطفى كمال أتاتورك

نجحت اليهودية الصليبية في إلصاق الرزائل بالسلطان عبدالحميد، وإضفاء جميع صور البطولة على اليهودي "مصطفى كمال" [2] الذي مَثَّلَ رأس الأفعى اليهودية [3]، ونفذ لدغتها القاتلة، التي أدت إلى هدم الخلافة الإسلامية، وتمزيق الوجود السياسي للمسلمين، فقد كان هذا الخبيث يتظاهر بالتدين، والتعلق بأهداب الإسلام، ويصلي في مقدمة الجنود، كما يفعل بعض طواغيت اليوم، وكان يتملق العلماء المنافقين، ويستغلهم لشحن نفوس عامة الناس ودفعها إلى تحقيق مآربه. وحالما استتب له الأمر، وأصبح أبًا للأتراك، كما كانوا يسمونه "أتاتورك"، شرع ينفذ خطته التي رسمها له اليهود لهدم الخلافة، وتمزيق شمل المسلمين، لتقوم على أنقاضها الحكومات العميلة للشرق والغرب.

ألغى مصطفى كمال الخلافة الإسلامية التي كانت تُرهب أعداء الله، ثم فصل تركيا عن جسم العالم الإسلامي، وأعلن العلمانية الإلحادية، وفصل الدين عن الدولة، واضطهد علماء المسلمين، وقتل منهم العشرات، وأغلق كثيرًا من المساجد، وحَرَّمَ الأذان والصلاة باللغة العربية، وأجبر الشعب على تغيير زيه الإسلامي، وفرض القوانين المدنية السويسرية، وفرض العطلة الأسبوعية الأحد بدلاً من يوم الجمعة، وقضى على التعليم الإسلامي، واستبدل بالحروف العربية حروفًا لاتينية، واستدعى العلماء اليهود لتنظيم الجامعات التركية.

---

(١) يجد القارئ في كتاب الجنرال التركي رفعت أتلخان "الخطر المحيط بالإسلام" بحثًا مفصلاً عن دور الصهيونية في خلع السلطان عبدالحميد، والمؤامرات التي دُبرت لإسقاطه بسبب عدم رضوخه لمطالب اليهود لمنحهم امتيازات في فلسطين. ففي ذلك يقول: إن الشخص الوحيد في تاريخ الأتراك عمومًا الذي عرف حقيقة اليهودية وقدر اضرارها على الأتراك والإسلام، وكافحها مدة طويلة لتحديد شرورها هو السلطان عبدالحميد الثاني. إن هذا السلطان التركي العظيم كافح ضد المنظمات الخطرة مدة ثلاث وثلاثين عامًا بذكاء وعزم وإرادة مدهشة جدًا كالأبطال.

(٢) كان مصطفى كمال من يهود الدونمة الذين طُردوا من أسبانيا واستوطنوا سالونيك، وتظاهروا بالإسلام.

(٣) يرى اليهود أن ذنب الأفعى اليهودية ثابت في القدس، ورأسها يتحرك في بلدان العالم، ينفث السموم ويواصل لدغاته لكل من يقف في طريق أطماع اليهود، إلى أن يتم لهم تدمير الشعوب والسيطرة على العالم، وعندها يعود رأس الأفعى إلى أورشليم، ليتربع ملك اليهود على عرش العالم، ويحكم من هيكل سليمان.

تقول دائرة المعارف اليهودية: "إن الانقلاب التركي عام ١٩٠٨م الذي قام به الأخ العظيم مصطفى كمال أتاتورك، أفاد الأمة، فقد أبطل السلطنة وألغى الخلافة، وأبطل المحاكم الشرعية، وألغى دين الدولة الإسلام، وألغى وزارة الأوقاف...". .

لقد أحالت خطة مصطفى كمال تركيا إلى مزرعة يهودية، سَخُرَ أجهزتها للدعاية اليهودية ضد الإسلام، وسمحت للرأسمال اليهودي أن يسيطر على تجارة البلاد، حتى أصبحت سوقًا لإسرائيل تُصَرِّف فيه بضائعها.

إنه مهما قيل عن مساوئ السلطان عبدالحميد الثاني فيكفيه فخرًا أن يثبت بأن القوى التي تآمرت على إسقاطه كانت معادية للإسلام، وأنه صان الدولة الإسلامية طوال مدة حكمه، وأن عملية تمزيق دولة الخلافة الإسلامية لم تبدأ إلا بعد أن سيطر اليهود والماسون على الآستانه عام ١٩٠٩م، وظهر دعاة القومية [١].

الماسونية والسلطان عبدالحميد

جمعية الاتحاد والترقي

بعد أن فشلت مساعي هرتزل لدى السلطان عبدالحميد في استقطاع وطن قومي لليهود في فلسطين، رغم العروض السخية، والإغراءات العديدة التي قُدِمَت للسلطان من قِبَل الصهيونية العالمية والماسونية ـ التي كانت واجهة من واجهاتها، تعمل بوحي يهودي، وأسرار يهودية ـ قررت التخلص من السلطان.

دعمت المراكز الماسونية الجمعيات السرية التي تعمل ضد السلطان عبدالحميد، فمدت يدها إلى جمعية الاتحاد والترقي التي تشكلت على طراز جمعية الكاربوناري الإيطالية، وتدرب أعضاؤها على أيدي الماسونيين الإيطاليين، لتتبعث فيها الحياة خارج الإمبراطورية العثمانية، ولكنها أدركت أن دور وجهد بضعة أشخاص هاربين من الدولة العثمانية لن يكون مجديًا على الإطلاق، لذلك فإن الأسلوب المؤثر والفَعَّال هو التسرب إلى الجيش، واصطياد الضباط الشباب بكل أنواع الإغراءات المختلفة.

كان الجيش الثالث في مدينة سلانيك هو الأنسب لهم، فهو بعيد عنْ مركز الدولة،

(١) انظر فؤاد سيد الرفاعي ـ حقيقة اليهود ـ دار صلاح الدين.

كما أنه مركز الدونمة [1] واليهود والماسونيين.. فيه أقوى المراكز الماسونية، علاوة على أنه في إقليم مضطرب مشحون بالفتن وبالحركات السرية المسلحة، كما أنه يتمتع بنوع من الحرية العسكرية لا تتمتع بها الجيوش الأخرى التي بقيت مخلصة للسطان.

يقول المؤرخ التركي "نظام الدين نظيف" في كتابه "إعلان الحرية والسلطان عبدالحميد الثاني": [..عندما رُد طلب الوفد اليهودي في الحصول على وطن لهم، وخاب هرتزل في مسعاه، اشتد العداء ضد السلطان عبدالحميد، وهذا ما كان يتوقعه عبدالحميد، لأن اليهود قوم يتقنون العمل المنظم، وكانت لديهم قوى عديدة تضمن لهم النجاح في مسعاهم، فالمال متوفر لديهم، وكانوا يسيطرون على أهم العلاقات التجارية الدولية، وكانت صحافة أوروبا في قبضتهم، فكان في مقدورهم إطلاق العواصف التي يريدونها لدى الرأي العالمي متى شاءوا...

بدأوا أولاً بتحريك الصحافة العالمية، ثم أخذوا بتوحيد وتجميع كل الشروط المعادية لعبدالحميد في المجتمع العثماني.. وأخذ المشرق الأعظم الماسوني الإيطالي على عاتقه هذه المهمة في التوحيد والتنسيق، لأنه كان أقرب مركز ماسوني للإمبراطورية العثمانية. ولعب محفل Macedonid Risorta ومحفل Labos Lux الإيطاليين، وخصة محفل ريزورتا في سلانيك دورًا ملحوظًا] [2].

دور الماسونية في حركة تركيا الفتاة

يعترف الدكتور "أرنست أ. رامزور" في كتابه "تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨م" بدور المحافل الماسونية في خلع السلطان عبدالحميد فيقول: "يؤكد الدارسون أنه في حوالي سنة ١٩٠٠م قد قرر "المشرق الأعظم الفرنسي" إزاحة السلطان عبدالحميد، وبدأ يجتذب لهذا الغرض حركة تركيا الفتاة منذ بداية تكوينها، وأنه يمكن القول بكل تأكيد أن الثورة التركية كلها تقريبًا من عمل مؤامرة يهودية ماسونية".

وتقول "ناستا هـ. ولستر Nasta H. Welster" مؤلفة كتاب "الجمعيات السرية

---

(١) الدونمه جماعة من اليهود هربوا من الأندلس في نهاية القرن العاشر الهجري، واستقروا في الدولة العثمانية. تظاهروا بالإسلام وبقوا على دينهم يمارسون شعائره وطقوسه سرًا (ومعنى كلمة الدونمه هو المرتد).

(٢) انظر أورخان محمد علي ص٢٧٠-٢٨٢، السلطان عبدالحميد الثاني: حياته وأحداث عهده.

والحركات الهدامة Secret Societies and Subversive Movment" حول علاقة حركة الاتحاد والترقي بالماسونية: "إن حركة تركيا الفتاة نشأت من المحافل الماسونية في سلانيك التي كانت تُدار من قِبَل "المشرق الأعظم" الإيطالي.

ويقول سيتون واطسون في كتابه "نشأة القومية في بلاد البلقان The Rise of Nationality in the Balkans": [إن أعضاء تركيا الفتاة الذين كان غرب أوروبا على أتصال دائم بهم كانوا رجالاً منقطعين وبعيدين عن الحياة التركية وطراز تفكيرها، وكانوا متأثرين وبشكل سطحي بالحضارة الغربية، وبالنظريات غير المتوازنة للروح الوحشية للثورة الفرنسية. كان كثير منهم أشخاصًا مشبوهين، ولكنهم كانوا دون استثناء رجال مؤامرات لا رجال سياسة، ومدفوعين بدافع الكراهية والحقد الشخصي، لا بدافع الوطنية، والثورة التي انجزوها كانت نتاج عمل مدينة واحدة وهي مدينة "سلانيك"، إذ نمت وترعرعت فيها وتحت حماية المحافل الماسونية "جمعية الاتحاد والترقي" وهي المنظمة السرية التي بدلت نظام حكم عبدالحميد.

إن العقول الحقيقية للحركة كانت عقولاً يهودية أو يهودية مسلمة، وقد جاءت مساعداتها المالية من أغنياء "الدونمة" ومن يهود سالونيك، ومن الرأسماليين العالميين أو شبه العالميين في فينا وبودابست وبرلين وربما في باريس ولندن أيضًا].

كانت الأيدي اليهودية من وراء الأستار، وكانت المؤامرة تتم باسم الإصلاح، وباسم مقاومة الظلم والاستبداد، وتحت شعارات الحرية، الإخاء، والمساواة.

وكان السلطان عبدالحميد على وعي كامل بأن خيوط المؤامرة المحاكة ضده هي في أيدي اليهودية العالمية لعدم استجابته لبيع القدس وفلسطين إليهما [1].

يقول السلطان عبدالحميد بعد خلعه ونفيه إلى سلانيك:

"إن أشد ما آلمني هو تبليغي قرار الخلع من قبل ذلك اليهودي الماسوني. فأنا لا أستطيع نسيان "عمانوئيل قره صو" من بين وفد المبعوثين النواب الذين جاءوا إلى يلدز. لقد كان هذا إهانة لمقام الخلافة. ونحن نعلم جميعًا مدى الحقد الذي يكنه اليهود منذ زمن الرسول ﷺ للإسلام، ولمقام الخلافة. وعندما كنت على عرش السلطنة العثمانية جاءني

(١) المرجع السابق ص٢٨٣-٢٨٧.

في أحد الأيام "تيودور هرتزل" مؤسس المنظمة اليهودية العالمية مع رئيس الحاخامين، وذلك من أجل غاية يهودية، وقبلت الزيارة للاستماع إليهم لمعرفة مقاصدهم، فكان طلبهم هو وطن لليهود، وكانوا يقترحون القدس لذلك، حتى أن تيودور هرتزل قال بلا خجل: "أحب أن أعرض لجلالتكم بأننا مستعدون لتقديم الملايين التي ترونها مناسبة من الذهب حالاً من أجل القدس".

شعرت بأن الدم يطفر إلى رأسي.. تأمل! لقد وصلت الجرأة بهذين اليهوديين إلى عرض الرشوة على مقام سلطنتنا. صرخت بهما "أخرجا من هنا حالاً، إن الوطن لا يباع بالمال". وعندما دخل رجال القصر أمرتهم بإخراجهما.

ومنذ ذلك الحين ناصبني اليهود العداء، وكل ما قاسيته هنا في سلانيك هو جزاء عدم إعطائي وطناً لليهود" (١).

ويقول في رسالته التي وجهها إلى الشيخ محمود أفندي أبي الشامات من منفاه: "إن هؤلاء الاتحاديين قد أصروا وأصروا عليّ بأن أصادق على تأسيس وطن قومي لليهود في الأرض المقدسة - فلسطين - ورغم إصرارهم لم أقبل بصورة قطعية هذا التكليف. وأخيرًا وعدوا بتقديم ١٥٠ مائة وخمسين مليون ليرة إنجليزية ذهبًا فرفضت هذا التكليف بصورة قطعية أيضًا، وأجبتهم بالجواب القطعي الآتي:

إنكم لو دفعتم ملء الدنيا ذهبًا، فلن أقبل.. لقد خدمت الملة الإسلامية والأمة المحمدية ما يزيد عن ثلاثين سنة، فلن أسود صحائف المسلمين آبائي وأجدادي من السلاطين والخلفاء العثمانيين. لهذا لن أقبل تكليفكم بوجه قطعي أيضًا".

وبعد جوابي القطعي اتفقوا على خلعي.. وقبلت وحمدت المولى وأحمده أنني لم أقبل بأن ألطخ الدولة العثمانية والعالم الإسلامي بهذا العار الأبدي الناشيء عن تكليفهم بإقامة دولة يهودية في الأراضي المقدسة فلسطين، وقد كان بعد ذلك ما كان" (٢).

مقتطفات من الوثيقة البريطانية

في رسالة سرية بعثها السفير البريطاني في استانبول "السير جيرارد لاونز" بتاريخ

(١) المرجع السابق ص٢٨٨-٢٨٩ نقلاً عن Iki Devrin Perde Arkasi ص٥٠-٥١.
(٢) المرجع السابق ص٢٨٩ نقلا عن مجلة العربي العدد ١٦٩ سنة ١٩٧٢ - مقالة لسعيد الأفغاني.

٢٩ آيار ١٩١٠م إلى وزير خارجية بريطانيا "شارل هاردينج" يقول: [...لا يخفى عليك أن حركة تركيا الفتاة في باريس كانت مستقلة عن حركة تركيا الفتاة في سلانيك، وكانت تجهل معظم تنظيماتها وإجراءاتها الداخلية، ويسكن في سلانيك حوالي ١٤٠,٠٠٠ نسمة منهم ٨٠,٠٠٠ يهودي من أصل أسباني، ٢٠,٠٠٠ من طائفة سبط لاوي، أو من اليهود المتظاهرين بالإسلام، ومعظم هؤلاء اليهود الأسبان الأصل قد حصلوا في الماضي على الجنسية الإيطالية.

وهم ماسونيون ينتمون إلى المحافل الإيطالية، ويحتلون مراكز رفيعة في الماسونية، وهم يزعمون بأن محافلهم الماسونية هي فروع من المحفل الأسكتلندي القديم وتتبع طقوسه.

وقبل بضعة أعوام أسس "عمانوئيل قراصوه" [١] ـ وهو يهودي ماسوني من سلانيك، ويمثل الآن مدينة سلانيك في مجلس المبعوثان التركي ـ بالتعاون مع الماسونية الإيطالية محفلاً في سلانيك سمي بمحفل "ماسيدونيا ريزورتا" ويبدو أن قراصوه أقنع رجال تركيا الفتاة ضباطاً ومدنيين بالانتماء إلى الماسونية، وهدفه من ذلك فرض النفوذ اليهودي غير المستساغ على الأوضاع الجديدة في تركيا"].

ويستطرد السفير البريطاني قائلاً: [...وقد علم جواسيس عبدالحميد بالحركة، ويظهر أن إسماعيل باشا عرف بعض أسرارهم ونقلها إلى قصر يلدز. وبعد مدة قصيرة من قيام الثورة سنة ١٩٠٨م أغتيل إسماعيل ماهر باشا في ظروف غامضة].

[...ويظهر أن المخططين لحركة تركيا الفتاة في سلانيك كانوا بالدرجة الأولى من اليهود.. كانت شعارات أعضاء تركيا الفتاة "الحرية، العدالة، التآخي"].

[...وبعد مدة قصيرة من ثورة ١٩٠٨م، وحالما انتقلت جمعية الاتحاد والترقي إلى القسطنطينية، أصبح من المعروف بأن عددًا كبيرًا من قادتها كانوا ماسونيين].

[..وبعد أن تم خلع السلطان عبدالحميد أخذت الجرائد اليهودية في سلانيك تزف البشائر بالخلاص من "مضطهد إسرائيل" الذي رفض مرتين أن يستجيب لطلب الزعيم الصهيوني هرتزل، والذي وضع جواز السفر الأحمر ضد المهاجرين البولونيين اليهود،

(١) كان قراصوه أحد الرجال الذين حملوا إلى السلطان عبدالحميد رسالة خلعه من السلطنة.

وغير ذلك من الأعمال التي حالت دون تحقيق الحلم الصهيوني في فلسطين. وأعلن المؤتمر الصهيوني التاسع المنعقد في هامبرع من شهر كانون الأول سنة ١٩٠٩م بأن انقسام العالم اليهودي بين الصهيونيين ودعاة الهجرة إلى مناطق أخرى غير فلسطين قد انتهى.. وعاد اليهود موحدين بفضل معجزة الثورة التركية..] (١).

الحروب الصليبية حروب دينية

كانت الحملات الصليبية التي مر على بدايتها أكثر من تسعة قرون - والتي مازالت مستمرة حتى اليوم - حروبًا ذات صبغة دينية، ولم تكن كما يذكر بعض تلامذة الغرب وعملائه من كُتّاب التاريخ، حروبًا اقتصادية بحته، تهدف إلى تحقيق الكسب المادي فقط.

جاءت الحملات الصليبية تحت راية الصليب بدعوة من البابا أوربان الثاني، وأشرف على إعدادها أساقفته، وكان بطرس الناسك المُحَرِّض الأول لها.

تؤكد الحقائق التاريخية أن البابا "أوربان الثاني" ارتقى درجات كاتدرائية مجمع كليرمونت (في مدينة كليرمونت التي تقع جنوبي باريس بحوالي ٢٨٨ كيلو مترا) في يوم ٢٧ نوفمبر عام ١٠٩٥م، وكانت الكاتدرائية تغص بالأساقفة، وعدد غفير من الأمراء والنبلاء، والالاف من المسيحيين، وكان الجو باردًا إلا أن هذا الجمع الغفير احتشد ولم يأبه بزمهرير الشتاء القارص، واعتلى البابا المنصة، وألقى خطابه الرهيب قائلاً: [إنه في ظل الظروف الملحة قدمت أنا أوربان الثاني المُتَوَّج بمشيئة الرب بتاج التثليث الأعظم للعالم أجمع إليكم ياعباد الرب بمثابة رسول لأنبئكم بالأوامر الربانية].

[عليكم أن تأخذوا، وبكل سرعة، المساعدات إلى إخوانكم في المشرق التي طالما وعدتموهم بها، إنهم بحاجة ملحة إليها، إن العرب والتركمان قد حاربوهم، وتوغلوا في الأراضي الرومانية "البيزنطية" عميقًا حتى البسفور، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في أراضي هؤلاء المسيحيين. لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة، فقتلوا منهم من قتلوا، وأخذوا عددًا كبيرًا من الأسرى، ودمروا الكنائس، واجتاحوا أراضي المملكة، وإذا لم تتصدوا لهم الآن فإنهم سيمدون سلطانهم أعمق، وسينشرونه فوق العبيد المخلصين للرب].

---

(١) انظر إلى الوثيقة بالتفصيل في المرجع السابق ص٢٩٣-٣١٢ نقلاً عن مجلة آفاق عربية ـ لسنة الثالثة ـ العدد ٩ أيار ـ ترجمة د. محمد توفيق حسين.

[ولهذا السبب أتوجه إليكم بالرجاء والتحريض، وإنه ليس أنا الذي أتوجه إليكم، ويحرضكم الرب على لساني أنا نائب المسيح، أتوجه إلى الفقير منكم والغني، وأسألكم أن تتسارعوا نحو طرد أبناء الشر (المسلمين) هؤلاء من المناطق المسكونة من قِبل إخواننا، وأن تقدموا المساعدة في وقتها المناسب إلى عباد المسيح. إنني أخاطب جميع هؤلاء الحضور، وأعلن نفس الشيء إلى جميع الغياب، لكن اعلموا أن المسيح هو الذي يخاطبكم، ويصدر الأوامر].

[إن جميع الذين يذهبون إلى هناك ويفقدون حياتهم في البر والبحر أثناء الرحلة، وخلال المعركة ضد الكفار المسلمين في نظر أوربان الثاني سيتم غفران ذنوبهم في الحال، وإنني امنح هذا من خلال السلطة المضفاة عليَّ من الرب].

[انهضوا وأديروا أسلحتكم التي كنتم تستعملونها ضد إخوانكم المسيحيين، بل قاتلوا أعداءكم الذين استولوا على مدينة القدس.. حاربوا تحت لواء المسيح، قائدكم المسيح].

كان رد الحشود الهائلة لدعوة العدوان وشن الحروب الصليبية هو: هكذا أراد الله. لقد حرص البابا الداهية على قتال المسلمين، وأثار حماس النصارى، وكان يؤكد لهم أنه الناطق الأوحد باسم الرب المسيح.

لقد أقام الأسقف "أديمار" بعد أن فرغ البابا من خطابه، والذي استقر الرأي على أن يقود أول حملة صليبية، ليضرب المثل المحتذى للفرسان، فتقدم الصفوف، وركع أمام الباب ملتمسًا بركاته وتلقى منه شارة الصليب.

خطاب البابا أوربان الثاني في الجماهير المسيحية داعيًا إلى الحروب الصليبية

> ياشعب الفرنجة! شعب الله المحبوب المختار! لقد جاءت من تخوم فلسطين، ومن مدينة القسطنطينية أنباء محزنة، تعلن أن جنسًا لعينًا أعد ما يكون عن الله، قد طغى وبغى في تلك البلاد، بلاد المسيح، وخربها بما نشره فيها من أعمال السلب والحرائق، ولقد ساقوا بعض الأسرى إلى بلادهم، وقتلوا بعضهم الآخر بعد أن عذبوهم أشنع تعذيب. وهم يهدمون المذابح والكنائس بعد أن يدنسوها برجسهم، ولقد قطعوا أوصال مملكة اليونان، فانتزعوا منها أقاليم بلغ من سعتها أن المسافر فيها لا يستطيع اجتيازها في شهرين كاملين.

على من تقع تبعة الانتقام لهذه المظالم، واستعادة تلك الأصقاع، إذا لم تقع عليكم أنتم؟ أنتم يامن حباكم الله أكثر من أي قوم آخرين بالمجد في القتال، وبالبسالة العظيمة، وبالقدرة على إذلال رؤوس من يقفون في وجوهكم؟ ألا فليكن من أعمال أسلافكم ما يقوي قلوبكم. أمجاد شارلمان، وعظمة وأمجاد غيره من ملوككم وعظمتهم، فليثر همتكم ضريح السيد المسيح المقدس ربنا ومنقذنا!!.

الضريح الذي تمتلكه الآن أمم نجسة، وغيره من الأماكن المقدسة التي لُوِّثت ودُنست. لا تدعوا شيئًا يقعد بكم من أملاككم أو من شئون أسركم. ذلك بأن هذه الأرض التي تسكنونها الآن، والتي تُحيط بها من جوانبها البحار وقلل الجبال، ضيقة لا تتسع لسكانها الكثيرين، تكاد تعجز عن أن تجود بما يكفيكم من الطعام، ومن أجل هذا يذبح بعضكم بعضًا، ويلتهم بعضكم بعضًا، وتتحاربوا ويهلك الكثيرون منكم في الحروب الداخلية.

طهروا قلوبكم إذن من أدران الحقد. واقضوا على ما بينكم من نزاع، واتخذوا طريقكم إلى الضريح المقدس، وانتزعوا هذه الأرض من ذلك الجنس الخبيث، وتملكوها أنتم.

إن أورشليم أرض لا نظير لها في ثمارها هي فردوس المباهج، إن المدينة العظمى القائمة في وسط العالم تستغيث بكم أن هبوا لإنقاذها، فقوموا بهذه الرحلة راغبين متحمسين تتخلصوا من ذنوبكم. وثقوا أنكم ستنالون من أجل ذلك مجدًا لا يفنى في ملكوت السموات.

عن: قصة الحضارة لول ديورانت

ماذا فعلوا بالمسلمين

اقتحم الصليبيون بيت المقدس يوم الجمعة ١٥ يوليو عام ١٠٩٩، بعد حصار دام أكثر من أربعين يومًا، ولم يسع الجند المدافعون عن بيت المقدس من المسلمين سوى اللجوء إلى المسجد الأقصى للاحتماء به والدفاع عنه، فتبعهم الصليبيون، واقتحموا المسجد، وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة.

يقول المؤرخ جيستا فرانكو: "إن جنودنا كانوا يخوضون حتى سيقانهم في دماء المسلمين".

ويقول جيبون: "خدام الرب المسيحيين رأو حينئذ تمجيده وتكريمه فذبحوا سبعين ألفًا من أهل القدس، من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال قربانًا للرب.

ويقول المؤرخ هـ. ج. ويلز في كتابه "موجز تاريخ العالم": "وسقط بيت المقدس بعد شهر من الحصار، وكانت المذبحة التي دارت رهيبة فظيعة، فإن الراكب على جواده كان يصيبه رشاش الدم الذي سار في الشوارع أنهارًا".

أما المؤرخ "ميشو" وهو من كبار المؤرخين الغربيين للحروب الصليبية ـ يقول واصفًا ما حدث في القدس ـ تعصب الصليبيون في القدس أنواع التعصب الأعمى الذي لم يسبق له مثيل حتى شكى من ذلك المنصفون من المؤرخين، فكانوا يُكرهون المسلمين على إلقاء أنفسهم من أعالي البيوت، ويجعلونهم طعامًا للنار، ويخرجونهم من الأقبية وأعماق الأرض، ويجردونهم في الساحات، ويقتلونهم فوق جثث الآدميين.... الخ).

لقد قطعوا رؤوس المسلمين، وبقروا بطونهم، وحرقوا بعضهم في النار، وهذا ما أجمع عليه مؤرخو المشرق والمغرب.

كانت حقًا الحروب الصليبية حروبًا دينية خالصة، ودوافعها دينية خالصة.

الحملة الفرنسية على مصر والشام

جاءت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بونابرت لاحتلال مصر عام ١٧٩٨م، فكانت بمثابة أول غزو عسكري مسيحي غربي في التاريخ الحديث.

تذكر كتب التاريخ المدرسية أن الحملة كانت فاتحة خير ونهضة وبركة على مصر والعالم الإسلامي، حيث نقلت الحملة الصليبية إلى الشرق مباديء الثورة الفرنسية في الحرية والإخاء والمساواة، وأن عصر النور والتنوير قد حل بالبلاد بعد تحطيم الحاجز العثماني الذي حال دون اتصال الشرق بأوروبا طيلة ثلاثة قرون كاملة.

المقاومة الإسلامية للحملة (جرائم نابليون البشعة)

كان الإسلام من وراء كل حركات المقاومة للحملات الصليبية على البلاد، ومدافعة

الاحتلال الفرنسي والإنجليزي والصهيوني، ومن قبله الأسباني والبرتغالي والهولندي.

عندما احتل الفرنسيون مصر كان الإسلام وحده هو الذي أشعل نيران المقاومة المسلحة، والمقاومة السلبية.. ولم يجبن المسلمون المصريون أمام تفوق الفرنسيين العسكري، بل قاتلوهم ببسالة وشجاعة نادرة، وليس بوصفهم مصريين كما تصورها كتب التاريخ المدرسية، ولكن بوصفهم مسلمين يقاتلون الكفار الذين يحتلون أراضيهم، والدليل على ذلك أن الأزهر الشريف بعلمائه وشيوخه هم الذين قادوا حرب الدفاع المقدس والجهاد. وحكم الفرنسيون على عشرات من العلماء الشبان بالقتل، ونُفِّذَ فيهم حكم الإعدام مثلما نُفِّذَ في سليمان الحلبي ـ قاتل الجنرال كليبر ـ نفذ فيه حكم الإعدام بطريقة بشعة، ولم يكن سليمان الحلبي مصريًا، بل كان مسلمًا سوريًا، دفعه إسلامه إلى قتل قائد الحملة الصليبية الموجهة إلى الأرض المسلمة.

يقول المؤرخ عبدالرحمن الجبرتي: [لما دخل الغزاة الفرنسيين بخيلهم ورجلهم صحن الأزهر، أحدثوا فيه وتغوطوا، وشربوا فيه الشراب وتمخطوا، ودشتوا الكتب والمصاحف، وداسوها بنعالهم].

عندئذ اشتعلت الثورة في القاهرة والأقاليم ولم تنطفئ جذوتها، وظلت جثث القتلى تفوح رائحتها في القاهرة وحدها أكثر من ثلاثين يومًا، وقُدِّرَ عدد المسلمين القتلى في مقاومة الحملة الفرنسية بنحو نصف مليون شهيد في مصر وقراها.

استخدم نابليون الوسائل البشعة الدنيئة في اغتصاب الأموال وابتزازها، وانتهاك الحرمات، كانت الإعدامات بالجملة، ودون محاكمات. كان يُصدِرُ أوامره للجنود الفرنساوية بالاقتصاد في استخدام الرصاص (بعد غرق أسطوله في أبي قير) على أن يستخدموا السكاكين وأسنة البنادق في قتل المصريين، وإغراقهم في النيل، إلى غير ذلك مما يندى له الجبين، ويعتبر وصمة في التاريخ.

وعندما انطلقت قوات نابليون نحو الشام.. انطلقت تنهب وتذبح العرب على طول الطريق من العريش إلى عكا، ولما دخلوا يافا أعملوا السيف في نحو ألفي جندي من أفراد الحامية كانوا يحاولون التسليم.. راحوا يقتلون النفس كالمجانين طوال المساء كله، والليل كله.. ولا تزال الصفحات التي كتبها المؤرخون تذكر السلب والنهب وشق البطون، وهتك أعراض البنات وهن مازلن في أحضان أمهاتهن المائتات. وبعد أن أعطى نابليون الأمان

للحامية المستسلمة في يافا أمر بذبح كل الحامية!! هذه الصفحات مُحيت كلها محوًا، وطويت صور هذه المقاومة الباسلة طيًا.. مُحيت من كتب التاريخ المدرسية، بقصد حجبها عن أبنائنا وبناتنا، ولسحب ذيول النسيان على دور الإسلام في المعركة، وإغفال تضحيات المسلمين الجسيمة وخسائرهم في الأرواح والأموال [1].

الأسباب الحقيقية للحملة وأبعاد التآمر الصليبي اليهودي

جاء نابليون إلى مصر ومعه مخطط صليبي كامل لإخراج مصر من دائرة الإسلام، لعلها تكون بعد ذلك نقطة ارتكاز لإفساد بقية العالم الإسلامي، والذي يتلقى فيها العلم، ويستمد منها النور.

يقول أحد الباحثين: [أنه حين انتهت السلطة العليا في فرنسا إلى نابليون بونابرت، انتهز اليهود هذه الفرصة وشرعوا في الاتصال به، والإيحاء إليه عن طريق مستشاريه من اليهود، ثم قدموا له مذكرة قالوا فيها: "إنه ما من أمر من الأمور التي تلفت الأنظار في العالم اليوم وتستحق الاهتمام، كالمصير الذي ستؤول إليه مصر]، وتقترح المذكرة على نابليون اتخاذ مصر مستعمرة فرنسية مستغلاً أموال اليهودية، وخبرتهم في التجسس، في مقابل أن تمنح فرنسا اليهود الأرض التي سيقيمون عليها وطنهم وجمهوريتهم بعد تيههم الثاني. وتقترح المذكرة على نابليون أن يستدعي اثنين أو ثلاثة من زعمائهم ويقول لهم: اتجهوا بأنظاركم إلى مصر، تلك الأرض الجميلة، بعد خلاصها من العثمانيين، وبلغوا اقتراحاتنا إلى إخوانكم التائهين في الأرض، وليجمعوا الأموال فيبتاعوا ذلك الربع من مصر الذي يجاور برزخ السويس والبحر الأحمر، أما الثمن الذي يقدمونه لنابليون - بعد الأموال - فهو أن يكونوا في يده أداة تخريب واضطراب، فإذا استطاعوا عن هذا الطريق الدخول إلى عقر آسيا، فإنهم يقدمون عنصرًا استعماريًا متينًا ثابت الأركان، قد يكون ضروريًا يقدم لهم الضمانات لبث الفوضى وإشعال الفتن، وإحلال الأزمات للقضاء على الأتراك جملة واحدة.

(١) أنور الجندي - المرجع السابق - بتصرف.

استصوب نابليون الفكرة واستعان نابليون بعلماء اليهود وحاخاماتهم على صياغة النداء الذي يقول بأن الأمة الفرنسية تقدم لكم الآن على الرغم من كل العقبات مهد إسرائيل ياورثة فلسطين الشرعيين، إن فرنسا تناديكم الآن للعمل على إعادة احتلال وطنكم واسترجاع ما فُقِدَ منكم.

كان الهدف أن يمنحهم نابليون قِسْمًا من مصر يتخذونه قاعدة للوثوب إلى فلسطين، والمقابل هو المال وأن يكونوا في يده أداة فوضى وتخريب وتَثْبِيت للاستعمار الفرنسي!!.

كانت هذه هي مهمة الإمبراطور العظيم حامل لواء الثورة الفرنسية وشعاراتها الإنسانية ::[1].

نتائج الحملة الفرنسية

بدأ نابليون بدراسة الإسلام والقرآن، ثم أصدر عقب احتلاله الاسكندرية منشورًا ادعى فيه الإسلام في محاولة لتملق عواطف المسلمين، وتتويم الشعور الديني، جاء فيه:

[بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله، لا ولد له ولا شريك في ملكه، من طرف الفرنساوية المبني على أساس الحرية والتسوية، السرعسكر الكبير، أمير الجيوش الفرنساوية بونابرته، يعرف أهالي مصر جميعهم أن من زمان مديد الصناجق الذين يتسلطون في البلاد المصرية يتعاملون بالذل و'لاحتقار في حق الملة الفرنساوية" أي أن الهدف هو الانتقام من المماليك الذين يتعاملون مع الفرنسيين المقيمين في منطقة نفوذهم مصر والشام بالذل والاحتقار].

[أيها المشايخ والقضاة والأئمة والجريجية (اليونانيون المقيمون في مصر)، وأعيان البلد: قولوا لأمتكم إن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون. وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في رومية الكبرى وخربوا فيها كرسي البابا الدي كان دائمًا يحث النصارى على محاربة الإسلام، ومع الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني وأعداء أعدائه، أدام الله ملكه... الخ] [2].

---

(١) انظر الأستاذ أنور الجندي ـ معالم التاريخ الإسلامي المعاصر ـ ص٢٤٥-٢٤٨ ـ دار الإصلاح ـ نقلاً عن الأستاذ عدنان عبدالقادر أبوشيخي.

(٢) انظر الأستاذ محمد قطب ـ واقعنا المعاصر ـ ص١٩٩-٢٠٥.

وبعد هزيمة المماليك أمام بونابرته في معركة امبابة، استقر في القاهرة في منزل الألفي بك، وكان بوصفه مسلمًا! محبًا للإسلام والقرآن يرأس مجلس العلماء! ويخلع عليهم أحيانًا خلعًا سنية، ويُحاول استخدامهم في ترويج القوانين الوضعية التي أراد إحلالها محل الشريعة الإسلامية، والتي كان يطبعها في المطبعة العربية التي جاء بها معه ووضعها في بولاق.

كانت محاولة تنحية الشريعة الإسلامية هي أول نقاط المخطط التي بدأ بتنفيذها بالفعل، حتى كشفه واحد من علماء الأزهر فقال له في وجهه: لو كنت مسلمًا حقًا كما تدعي لطبقت الشريعة الإسلامية في بلدك فرنسا بدلاً من تنحية الشريعة هنا ووضع القوانين الوضعية بدلاً منها.

النتائج العلمية للحملة

وكما تتجاهل كتب التاريخ المدرسية الأهداف الحقيقية للحملة الفرنسية على مصر والشام، يزعم مؤلفي الكتب المدرسية أن للحملة نتائج علمية نقلت مصر والشرق نقلة حضارية، ويتساءل المرء هل كانت مهمة نابليون حضارية؟! ألم يكن نابليون مستعمرًا خطط له اليهود لاحتلال مصر؟ ألم تكن حملته على مصر فاتحة الهجوم الإمبريالي على العالم الإسلامي، وبداية لحملة التغريب التي جلبت على الأمة الإسلامية الويلات. ثم ماهي بذور النهضة التي زرعها في مصر أثناء احتلاله؟! استخدم نابليون المطبعة التي استقدمها معه من فرنسا في كتابة المنشورات التي طالب فيها الشعب المصري المسلم بالخضوع لأوامر المغتصب الصليبي.

وعن البعثة ا لعلمية التي جاءت بها لتنقب عن آثار فراعنة مصر الوثنيين الطغاة، يقول أحد المستشرقين في كتابه "الشرق الأدنى.. مجتمعه وثقافته Near East Culture and Socity": [إننا في كل بلد إسلامي دخلناه، نبشنا الأرض لنستخرج حضارات ما قبل الإسلام، ولسنا بطبيعة الحال نطمع في أن يرتد المسلم إلى عقائد ما قبل الإسلام، ولكن يكفينا تذبذب ولائه بين الإسلام وبين تلك الحضارات].

كان هذا هو هدف الحملة المخطط للبعثة العلمية المرافقة للحملة، ولم يكن هدفًا علميًا، إنماكان هدفًا صليبيًا مغلفًا بالعلم، شأنه شأن الرحلات العلمية الاستكشافية التي قام بها الصليبيون ابتداءًا من القرن السادس عشر الميلادي.

لقد كانت الآثار الفرعونية موجودة منذ ألوف السنين.. سُرِق منها ما سُرِق، ونُهِب منها ما نُهِب، وبقيت المعابد والهياكل الضخمة يزورها من يزور مصر ويعتبرها من عجائب الماضي السحيق، يتسلى برؤيتها، ويقف عندها ليأخذ العبرة ويمضي.. ويعود بلاده ليصفها لمن لم يرها، ثم يمضي الأمر كله بلا احتفال كبير.

وأما المسلمون من أهل مصر، فقد كانوا يرونها دون شك ويعجبون من دقائق صنعها، ولكنها في حسهم أصنام وأوثان تركها قوم غابرون، انقطعت الصلة بينهم بكون هؤلاء مسلمين وأولئك من عبدة الأوثان.

وكان هذا هو الحال في كل مكان في العالم الإسلامي، توجد فيه آثار من بقايا عبدة الأوثان الذين كانوا يسكنون الأرض قبل مجيء الإسلام، سواء في الجزيرة العربية، أو بلاد الشام والعراق، أو غيرها من البلاد.. وظل الأمر كذلك ما يزيد على ألف عام.. الناس في إسلامهم، وهذه الأوثان في الأرض، لا تثير فيهم إلا عبرة التاريخ.

ولكن المخطط الخبيث الذي حمله الصليبيون معهم وهم يجوسون خلال الديار كان هو نبش الأرض الإسلامية لاستخراج حضارات ما قبل التاريخ لذبذبة ولاء المسلمين بين الإسلام وبين تلك الحضارات، تمهيدًا لاقتلاعهم نهائيًا من الولاء للإسلام!

كان المقصود هو إثارة النعرة الفرعونية في المصريين المسلمين، حتى إذا انتسبوا لم يكن انتسابهم إلى الإسلام، إنما إلى مصر بعيدًا عن الإسلام.

أشار الجبرتي في كتاب عجائب الآثار أن الحملة الفرنسية نشرت الفاحشة والفجور في شوارع القاهرة، ذلك لخروج الساقطات الفرنسيات اللواتي جاء بهن نابليون، وكن يمشين حاسرات الرأس يثرن الفتنة ويغرين النساء المسلمات بتقليدهن [1].

الحملة والفكر العلماني

يرى الدارسون المحدثون من أساتذة التاريخ أن الحملة الفرنسية أدخلت العلمانية إلى مصر للمرة الأولى تعبيرًا عن روح الثورة الفرنسية، وأنها اتخذت طابعًا رافضًا لكل ما هو ديني.

(١) نفس المرجع السابق.

يقول المؤرخ المصري المعاصر للحملة الفرنسية عبدالرحمن الجبرتي: [إن الفرنسيين قوم لا يتدينون بدين، ويقولون بالحرية والتسوية].

ويرى الدكتور صلاح العقاد أن الأفكار التي كان يحملها الفرنسيون إلى مصر كانت تتسم بالعلمانية لأن أثر الفكر العلماني الذي خلفته الثورة الفرنسية كان لا يزال قويًا ولذلك لم تصطبغ الحملة الفرنسية بصبغة دينية.

وأسماهم جمال الدين الأفغاني بالدهرية أو الطبيعيين Naturalism وهم الذين يقصرون الوجود على الطبيعة المنظورة، وأن لا شيء خارج الطبيعة، فالطبيعة مستكفية بنفسها مستغنية عن خالق يوجدها.

ويرى الدكتور محمد البهي أن الاتجاه العلماني نشأ وتبلور في ظل الثورة الفرنسية منذ عام ١٧٨٩م بعد أن رفض الأوربيون الخضوع للكنيسة الكاثوليكية، ووساطة البابا صاحب الحق في الغفران، والجزاء باللعن نيابة عن الله، ومن هنا ترك هذا المجتمع الاعتماد على الله، إن لم يكن قد خالجه الشك في وجوده، وبدأ الإنسان في هذا المجتمع يعتمد في تفكيره ونظمه، ولم يعد ينظر إلى السماء التي يوجد فيها الله، وبدأ ينظر إلى الأرض.

محمد علي باشا مؤسس مصر الحديثة

تزعم كتب التاريخ أن محمد علي هو مؤسس مصر الحديثة وباني نهضتها!! ويقول عنه المستشرق الألماني بروكلمان أنه من أعظم الشخصيات التي عرفها الإسلام حديثًا شأنًا، إذ أخرج مصر من الظلمات إلى النور!!

أصل محمد علي ومولده

وُلِدَ محمد علي سنة ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م وهو ألباني، مقدوني، أوروبي الأصل. لم يتعلم القراءة والكتابة إلا في الخامسة والأربعين من عمره، اشتغل في مطلع شبابه بتجارة الدخان، أحب ركوب الخيل واستعمال السلاح، وتولى بعض الفرق العسكرية.

جاء إلى مصر مع الفرقة العسكرية العثمانية التي جاءت للدفاع عن مصر ضد الحملة الفرنسية التي قادها نابليون بونابرت في صيف ١٧٩٨م.

وصوله إلى السلطة

بدأت أحلام محمد علي في ملك مصر، بعد مغادرة الحملة الفرنسية عام ١٨٠١م، وبخروج الحملة عادت مصر ولاية عثمانية، وعين لها خسرو باشا واليًا.

تنسك محمد علي، واظهر للناس تمسكه الشديد بالإسلام، وتجمع العلماء حوله، واختاروه واليًا عليهم بشروطهم، وأرسلوا للسلطان العثماني بذلك، فأرسل مرسومًا بتعيينه واليًا على مصر سنة ١٨٠٥م.

بدأ محمد علي بإبعاد الضباط الألبان الذي جاءوا معه في الحملة لينفرد هو بالحكم، ثم بدأ بتصفية الزعامات الدينية التي أوصلته إلى الحكم، فأعلن بهذا تصفيته للدين، وإزاحته بعيدًا عن حركة الحياة، ثم اتجه إلى تصفية الأمراء المماليك الذين دافعوا عن البلاد وعن الإسلام بدمائهم، واستشهد الكثير منهم برصاص جيش نابليون [١].

يقول عبدالرحمن الجبرتي: [إن الوثائق التاريخية الأوروبية تقول إن قنصل فرنسا بالقاهرة حينئذ - رودفيني - هو الذي خطط وموس مذبحة القلعة الشهيرة التي قضى فيها محمد علي على المماليك.

محمد علي كان أداة لتنفيذ المخطط الصليبي ضد الإسلام

يقول أحد الباحثين المنصفين: [لقد دخل محمد علي مصر باسم الإسلام، واختاره أهلها وعلماؤها باسم الإسلام، وبشروط الإسلام، ولكنه أخرج مصر من دائرة الإسلام بعد أن أصبح أداة لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه ضد الإسلام.. احتضنته فرنسا بعد أن تدخلت لدى السلطان لإرساله واليًا على مصر، فأنشأت له جيشًا مدربًا على أحدث الأساليب، ومجهزًا بأحدث الأسلحة المتاحة يومئذ بإشراف سليمان باشا الفرنساوي، وأنشأت له أسطولاً بحريًا على أحدث طراز، كما أنشأت له ترسانة بحرية في دمياط، وغير ذلك من الإنشاءات].

ويتساءل المفكر الإسلامي محمد قطب فيقول: هل كان كل هذا حبًا في شخص محمد علي؟ أو حبًا في مصر؟ إنما كان هذا لتنفيذ المخطط الصليبي الذي عجزت الحملة الفرنسية عن تنفيذه بسبب اضطرارها إلى الرحيل.

---

(١) جوده محمد عواد - قضايا إسلامية - الهيئة المصرية العامة للكتاب.

لقد قام محمد علي بدور خطير في نقل مصر من المرتكز الإسلامي إلى شيء آخر يؤدي بها في النهاية إلى الخروج من الحيز الإسلامي.. سواء كان واعيًا تمامًا لهذا الدور، أو مُستَغَلاً من قِبَل الصهاينة والصليبيين لتنفيذه، والذي يغلب وفي ضوء تجربتي كمال أتاتورك وجمال عبدالناصر، أنه كان واعيًا للدور وضالعًا فيه.

ويضيف الشيخ محمد قطب قائلاً: لقد كانوا يريدون القضاء على الإسلام بصفة عامة، ولكنهم وضعوا في مخططهم أهدافًا مرحلية معينة تمكنهم ـ في تصورهم ـ من القضاء الأخير على الإسلام.. من هذه الأهداف: القضاء على الدولة العثمانية، والقيام بتغريب العالم الإسلامي، مع العناية الخاصة بتغريب مصر ـ بلد الأزهر ـ وتصدير التغريب منها إلى بقية العالم الإسلامي.. ذلك لقتل روح الجهاد الإسلامية ضد الصليبيين عن طريق إزالة الحاجز العقدي، ولضمان تبعية العالم الإسلامي للغرب.

كانت الخطة الصليبية التي اضطلعت فرنسا بتنفيذها في مصر هي تكبير محمد علي وإغرائه للاستقلال عن الدولة العثمانية، لتتفكك عرى الدولة وتنهار. وفي ذات الوقت كانت الخطة هي تغريب مصر ـ بعد استقلالها ـ لضمان تبعيتها الدائمة للغرب، وانفصالها عن الإسلام نهائيًا.

حروب محمد علي

خاض محمد علي سلسلة من الحروب ضد الوهابيين في شبه الجزيرة العربية، كانت من أكبر سيئاته، كما حارب السلطان العثماني في محاولة للاستقلال عن الخلافة، وعندما اتسعت أطماعه الشخصية منعته الدول الأوربية وأوقفته.

كتب الشيخ محمد عبده في المنار سنة ١٩٠٢م/ ١٣٢٢هـ بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس مُلك هذه الأسرة، قال: إن لمحمد علي ثلاثة أعمال كبيرة:

(١) تأسيس حكومة مدنية علمانية كانت مقدمة لاحتلال الأجانب له.

(٢) قتاله للدولة العثمانية بما أظهر به للعالم كله ولدول أوربا خاصة ضعفها وعجزها، وجرأهن على التدخل في أمور سياستها.

(٣) مقاتلة الوهابية والقضاء على مانهضوا به من الإصلاح الديني في جزيرة العرب، مهد الإسلام ومعقله [١].

(١) انظر معالم التاريخ الإسلامي المعاصر ـ أنور الجندي ـ ص٢٥٥.

كان محمد علي كنابليون، كلاهما تحركه أهداف علمانية.. وكان طموح نابليون الذي حققه في أوروبا ـ بعد رحيله من مصر ـ أكبر عوض عن فشله في تحقيقه في الشرق. ثم إن الاستعمار نفسه لم يخسر شيئًا، فقد استطاع أن يحقق أهدافه عن طريق محمد علي والمسلمين أنفسهم. ولا يعني فشل نابليون في حصار عكا وغزوها أن تظل مغلقة.. ولكن فتحها على يد قائد مسلم هو إبراهيم بن محمد علي، فلقد كانت حروب إبراهيم باشا في عكا وفلسطين وسوريا والأناضول والجزيرة العربية لمحاربة جماعة محمد بن عبدالوهاب أول الإسلاميين الخلصاء في العصر الحديث تحت راية الإسلام بسلاح فرنسي ومشورة فرنسية وخبراء عسكريين فرنسيين. كانت هذه الحروب التي قادها قائد مسلم وتحاربت فيها جيوش مسلمة تحقيقًا للتخطيط الذي رسمه المستشرق الفرنسي الكونت (فولني) الذي حفظه نابليون عن ظهر قلب قبل حملته على مصر، إذ كان ينادي هذا المستشرق بأن السيطرة على الشرق لا تتم إلا بعد الاستيلاء على مصر والشام، وتحطيم الخلافة العثمانية [1].

كان محمد علي امتدادًا لنابليون في مصر، ومبادئ العلمانية التي أرساها نابليون وجيوشه الفرنسية مكن لها محمد علي بعد ذلك، بعد أن قوض سلطة الأزهر، وأضعف نفوذ علماء الدين.

لقد مهدت أوروبا ـ خاصة فرنسا ـ كيف تحكم مصر بعد خروج الفرنسيين منها، وكانت خطة محمد علي في التحديث استمرارًا لخطة نابليون، وأقام محمد علي دولته العلمانية التي لا تفرق بين مواطن وآخر إلا بمقدار ما يقدمه لها من خدمات، دون ما اعتبار لدين أو عرق أو لون، تمامًا كما فعلت فرنسا بعد نجاح ثورتها الكبرى.

ويشهد الشيخ محمد عبده الذي عاصر عددًا من حكام أسرة محمد علي، على هذا العصر فيقول: لم يفكر محمد علي في بناء التربية على قاعدة من الدين والأدب، أو وضع حكومة منظمة يقام بها الشرع ويستقر العدل.. وحتى الكتب التي تُرجمت في فنون شتى، تُرجمت برغبة الأوروبيين الذين أرادوا نشر آدابهم في البلاد، وحرم المصريين من بلوغ الرتب أو الجيش، لذلك لم تلبث تلك القوة (الجيش) أن تهدمت واندثرت، وظهر الأثر عندما جاء الإنجليز لإخماد ثورة عرابي، ثم استقروا ولم توجد في البلاد نحوة في رأس

(١) انظر د. السيد أحمد فرج ـ جذور العلمانية ص٣٤-٣٥ ـ دار الوفاء.

تثبت لهم أن في البلاد من يحامي عن استقلالها [1].

إن محمد علي استولى على ثروات الدوائر الدينية، وحرم المشايخ من سابق وظائفهم التي هيمنوا بها على المجتمع، وحكم عليهم بالعزلة التامة، حتى أنهم لم يعد في استطاعتهم أن يظهروا أمام الناس بأنهم القوة الوحيدة التي تستطيع أن تفرض على الحكام أن يحكموا بمقتضى العدالة الواجبة [2].

نهاية محمد علي

حاول محمد علي تكوين قوة عظمى على حساب الشعب المسلم، فأنشأ أسطولاً بحريًا تحطم في النهاية على يد من أحبهم، وبنى حضارته الوهمية على أيديهم، حيث اجتمعت انجلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا، وحطموا الأسطول المصري في البحر، وأجبروه على العودة من حيث بدأ، كما انخفض عدد الجيش وأصبحت مصر من بعده مطمعًا حيث احتلها الإنجليز سنة ١٨٨٢م، وحققت بريطانيا أهدافها بعد أن حطمت قوة محمد علي العسكرية، وطردته من أملاكه، وصار يستعطفهم لإبقائه في حكم مصر له ولأبنائه من بعده!!

الاكتشافات الجغرافية والتوسعات الأوربية في العالم

استمرت الحروب الصليبية ضد المسلمين طوال القرنين الثاني عشر والثالث عشر من الميلاد، ثم انتهت بجلائهم بعد أن قيض الله عز وجل للمسلمين من القادة أمثال الشهيد نورالدين والبطل صلاح الدين، وفيضًا آخر من قادة المسلمين عربًا وغير عرب، رفعوا راية الإسلام، وقاتلوا في سبيل الله، وباعوا أنفسهم وأموالهم فأيدهم الله بنصره.

وبعد إخراج المسلمين من الأندلس عام ١٤٩٢م، سنحت الفرصة لقراصنة البحر الأوروبيين ركوب البحار، وصار لدى نصارى شبه جزيرة أيبريا رغبة قوية في مطاردة المسلمين لانتزاع أراضيهم ومصادر ثرواتهم، فاحتلوا بعض الثغور الإسلامية على حين غرة من المسلمين، وانتقل نشاطهم من شمال أفريقيا إلى غربها وجنوبها، وظهر ما عُرِفَ

(١) المرجع السابق نقلاً عن مقال في مجلة المنار للشيخ محمد عبده.
(٢) المرجع السابق نقلاً عن عبدالرحمن الجبرتي.

في كتب التاريخ ـ تاريخ العالم الحديث والمعاصر ـ بحركة الكشوف الجغرافية الأوروبية خلال القرن الخامس عشر.

دور الأمة المسلمة في حركة الكشف الجغرافي

المصريون:

اهتم المصريون منذ القدم باكتشاف المناطق البعيدة، فوصلت بعثاتهم إلى بلاد بنت (القرن الأفريقي)، وداروا بسفنهم حول القارة الأفريقية، فكانوا بذلك أسبق من فاسكو دي جاما.

ويشير بعض المؤرخين إلى وصول المصريين إلى أمريكا الجنوبية، وقد لاحظوا ذلك من خلال التشابه الكبير في بناء الأهرامات، فكانوا بذلك أسبق من كولمبس في الوصول إلى العالم الجديد.

الفينيقيون:

اشتهر الفينيقيون بالملاحة، وأظهروا فيها كفاءة وقدرة عالية، واحتكروا تجارة البحر المتوسط، وازدهرت مدنه الكثيرة مثل جبيل وصور وصيدا وأوغاريت، وامتد نشاطهم من الجانب الشرقي للبحر المتوسط إلى الجانب الغربي، وعبر الفينيقيون مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي، وتركوا آثار حضارتهم في الجزر البريطانية، وتعدوا هذه الجهة شمالاً حتى شبه جزيرة اسكندنياوه.

بلادنا مركز النشاط والمعلومات الجغرافية زمن الإغريق والرومان.

ظلت بلادنا مركزًا للحركات الكشفية والمعلومات الجغرافية، فكانت الاسكندرية إحدى مشاعل الحضارة، ويرجع الفضل إلى التجار العرب الذين عرفوا الطرق التجارية البحرية، وعرفوا الرياح الموسمية عند باب المندب وبحر العرب، وعنهم أخذها اليونان والرومان.

لقد وصل التجار العرب إلى سيلان والصين، وجاب الكثير من جهات البر والبحر في آسيا وأفريقيا وأوروبا، وسجلوا أخبارهم ومعارفهم عنها للإفادة منها، ولقد كتب

الرحالة ابن خرداذبه دليلاً للتجار والمسافرين للاسترشاد به في رحلاتهم البحرية من بلاد العرب إلى الهند والصين.

فضل العرب والمسلمين في علم الجغرافيا وفي رسم الخرائط وفي تقدم فن الملاحة

حافظ العرب على الإنجازات العلمية التي توصل إليها علماء سابقون مثل بطليموس، وتوصلوا إلى نظريات خاصة بالملاحة والجغرافيا والفلك، كما ظهرت مؤلفات جغرافية جديدة على أيدي كبار الجغرافيين من المسلمين أمثال الخوارزمي الذي اشترك في قياس محيط الأرض في عهد الخليفة العباسي المأمون، كما أدخل تحسينات على خريطة بطليموس كذلك الشهير المقدسي الذي وضع كتاب "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم"، ويقول عنه المستشرق الأوروبي "أشبرنجر" أنه أكبر جغرافي عربي عرفته البشرية، ويعتبر كتابه نموذجًا للكتاب العلمي من حيث التنظيم والتبويب، وفي القرن الثاني عشر الميلادي أنجز أعظم عمل جغرافي عربي منظم في كتاب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" للإدريسي الذي وُلِدَ في سبته، وتعلم في قرطبة، وتنقل في أوروبا وآسيا الصغرى، ثم استقر في بلاط روجر الثاني ملك صقلية، وهناك صنع كرة فلكية من الفضة وخريطة للعالم حُفِرت على اسطوانة من الفضة الخالصة، ولقد قَسَّمَ الإدريسي العالم إلى سبعة أقاليم مناخية، ثم قَسَّمَ كلا منها إلى عشرة أقسام من المغرب إلى المشرق، ووضع لكل قسم خريطة خاصة به بالإضافة للخريطة العامة.

أما ابن حوقل فقد ألف كتاب "مسالك الممالك" بعد أن جاب العالم الإسلامي من المشرق إلى المغرب فيما يقارب من الثلاثين عامًا، وكذلك الاصطخري الذي ألف كتاب "المسالك والممالك" وأوضحه بكثير من الخرائط.

ومن علماء المسلمين الجغرافيين ياقوت الحموي الذي ألف كتاب "معجم البلدان" الذي يُعتبر موسوعة جغرافية ضخمة استغرقت عدة مجلدات مرتبة حسب حروف المعجم.

وإلي جانب كل ما تقدم أدخل العرب الكثير من التحسينات على صناعة السفن ورسم الخرائط، كما أدخلوا الأسلوب الرياضي ووضعوا خطوط الطول والعرض، واستخدموا آلات دقيقة لقياس ارتفاع الشمس والنجوم والكواكب فوق الأفق كالاسطرلاب، ولتحديد الاتجاه كالبوصلة "بيت الإبرة" وربع محيط الدائرة.

الدوافع الحقيقية للاكتشافات الجغرافية الأوروبية

كان الدافع الديني من أهم العوامل التي شجعت أوروبا على القيام بحركة الكشوف الجغرافية، وكانت البرتغال وأسبانيا أسبق الدول في القيام بالكشف الجغرافي، لأن الناحية الدينية لعبت دورًا كبيرًا في تخطيط سياسة هاتين الدولتين، وكانت تكمن في هذه الناحية روح صليبية جارفة.

كانت البرتغال تهدف إلى تحويل المسلمين في غرب أفريقيا وغيرها من المناطق الآهلة إلى المسيحية الكاثوليكية، كما كانت أسبانيا تبغي نشر المسيحية وفق المذهب الكاثوليكي بين السكان الأصليين والوثنيين فيما وراء البحار، وقد استهدفت هذه الروح الصليبية تحويل المسلمين في كافة المناطق إلى نصارى.

تجلت فكرة التعصب الديني والروح الصليبية في أسبانيا في عام ١٤٦٩م، عندما تزوج فرديناند حاكم أراجون، من إيزابيلا حاكمة قشتالة، وكان ذلك بمثابة مولد دولة أسبانيا المتحدة في التاريخ الحديث وبدا فعلا سيسة الاضطهاد الديني، والقضاء على كل فرد لا يدين بالمذهب الكاثوليكي، وكانت أول الأعمال التي قاما بها الاستيلاء على غرناطة، وهي آخر معقل للمسلمين في شبه جزيرة أيبيريا، وبعد طرد المسلمين من الأندلس ازداد مسيحيو شبه جزيرة أيبيريا تحمسًا وشراسة في مطاردة المسلمين خارجها، وانتقل نشاطهم إلى شمال أفريقيا وغربيها، وراودتهم الآمال في محاصرة الإسلام عن طريق البحر والقضاء عليه.

ظهرت حركة الكشوف الجغرافية باهتمام كبير من البابوات الذين أصدر بعضهم عدة مراسيم تخول ملوك أسبانيا والبرتغال الحق في ملكية كل إقليم جديد، ووصفوا في مراسيمهم الإسلام بأنه طاعون، وطالبوا ببذل الجهود لتتصير سكان المناطق التي كُشِفَت أو التي تُكْتَشَف، والحيلولة بينهم وبين إصابتهم بطاعون الإسلام.

وبالإضافة إلى ذلك كان البابوات يعدون المشتركين في الرحلات الكشفية بالعفو عند الحساب في اليوم الآخر.

أرسل البابا نيقولا الخامس ١٤٤٧-١٤٥٥م في عام ١٤٥٤م مرسومًا إلى ملك

البرتغال اشتمل على ما أطلق عليه اسم "خطة الهند" وهي تقوم على أعداد حملة صليبية نهائية تشنها أوروبا الكاثوليكية للقضاء قضاءً مبرمًا على الإسلام [1].

عمد البابا إلى خريطة للكرة الأرضية، ورسم فيها خطًا رأسيًا يقطع المحيط من الشمال إلى الجنوب، وقال إن الأراضي التي تقع إلى الغرب فهي من نصيب أسبانيا، وقد عُرِفَ الاتفاق الذي تم بين أسبانيا والبرتغال بإشراف البابا سنة ٨٩٤هـ/ ١٤٩٤م باسم معاهدة توردسيلاس [2].

انطلق البرتغاليون والأسبان من الكنيسة مأذونًا لهم في تطويق العالم الإسلامي والإجهاز عليه.

يقول الأستاذ محمود شاكر [3]: [رأى البرتغاليون ضرورة تطويق المسلمين، فقام ملك البرتغال حنا الأول بحملة على المسلمين في مراكش، واحتل سبتة، وجعل ابنه هنري حاكمًا عليها، لكنهم وجدوا أن التطويق يجب أن يكون عن طريق الوصول إلى بلاد لا يسكنها مسلمون حتى لا يساعدوا سكان الأندلس بثورات يقومون بها، فكان الانتقال على السواحل الأفريقية الغربية، وكلما وصلوا مكانًا وجدوا فيه مسلمين تركوه واتجهوا نحو الجنوب، بعد أن أسسو فيه قاعدة، وأخيرًا وصلوا إلى الرأس الأخضر، ولما وجدوا فيه مسلمين كانت خطوتهم أوسع، فوصلوا الكنغو، وتجاوزوا خط الاستواء، ثم دفعت العواصف بارثلميودياز نحو الجنوب حتى وصل أقصى الجنوب من القارة الأفريقية، وتجاوزها حتى وصل إلى السواحل المطلة على المحيط الهندي، ولمَّا عاد سمى الطرف الجنوبي من القارة برأس العواصف، ولكن ملك البرتغال أطلق عليه اسم رأس الرجاء الصالح، حيث شعر بأمل في إمكانية تطويق المسلمين.

حرمان المسلمين من مصادر ثروتهم وقوتهم

لم يكتف الأسبان والبرتغاليون بإخراج المسلمين من الأندلس، بل أرادوا ملاحقتهم في المغرب وإخراجهم منه، فسيطروا على بعض مراكز شواطيء البحر الأبيض

(١) د. عمر عبدالعزيز عمر ـ دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث ـ ص٨٣ ـ دار المعرفة الجامعية.
(٢) د. جمال عبدالهادي ـ أفريقيا يُراد لها أن تموت جوعًا ـ ص٢ ـ دار الوفاء.
(٣) انظر المصدر السابق ص١٩١-٢٠٩.

المتوسط شمال المغرب مثل مليلة ووهران، وكذلك استولوا على مناطق على شواطيء المحيط الأطلسي، وبعد أن استقروا في هذه المراكز شعروا بعدم إمكانية التوغل نحو الداخل لتمكن المسلمين.

حرص الأسبان والبرتغاليون على معرفة طرق تجارية أخرى غير التي يسيطر عليها المسلمون للوصول إلى بلاد الشرق، حيث مواطن التجارة التي كانوا يسمعون عنها من التجار المسلمين، وحرمان المسلمين من الأرباح التي كانوا يجنونها، ونشر النصرانية في البلاد التي يدخلونها، ثم حث النصارى على محاربة الإسلام والمسلمين، والاستفادة من كل خلاف يحدث بين المسلمين.

دور اليهود

أرسلت البرتغال بعض اليهود الذين يجيدون العربية إلى مصر، حيث أظهروا هناك الإسلام، وتقربوا من الحكام، مستفيدين من أوضاعهم المادية الحسنة، فستطاعوا أن يعرفوا أحوال جيش دولة المماليك أقوى الدول الإسلامية آنذاك، والتي تسيطر على شرق أفريقيا، وتساعد المسلمين في حربهم ضد الأحباش والنصارى، كما تَعَرَّفُوا على أوضاع البلاد الداخلية، وسرقوا خرائط البحار، والمعلومات عن الملاحة، وكيفية التخلص من منطقة الرهو الاستوائي التي بقيت لغزًا يصعب حله لدى الأوربيين حتى تلك الساعة. حيث تهدأ الرياح في المنطقة الاستوائية، ولا تتحرك السفن الشراعية، ولا يمكن التنقل إلا في الربيع شمالاً مع حركة الشمس الظاهرية، وفي الخريف جنوبًا، وعندما أخذ اليهود كل ما يريدون، انسلوا من مصر عائدين إلى البرتغال، وقدموا ما لديهم للحكومة.

فاسكو دي جاما

ما أن خرج المسلمون من الأندلس، حتى أرسلت البرتغال بارثليمرديـاز عام ١٤٨٧م، في نفس الاتجاه الذي سار فيه هنري الملاح، ثم كلف ملك البرتغال الملاح البرتغالي فاسكو دي جاما عام ١٤٩٧م بمهمة البحث عن الطريق البحري إلى الهند، ومواصلة جهود بارثلميودياز عن طريق جنوب أفريقيا، فاستجاب وأبحر على رأس بعثة، وسار من لشبونة ووصل إلى رأس الرجاء الصالح عام ٩٠٣هـ/ ١٤٩٧م، وسارت سفنه مع تيار موزمبيق شمالاً، ونزل في عده موانئ، أهمها موزمبيق وممبسه ومالينديء

وكانت هذه الموانئ مراكز إسلامية مليئة بالتجار العرب الذين فوجئوا بهؤلاء الأوربيين الذين أتوا من طريق لم يعهدوه من قبل، وقضى دي جاما أسابيع في مالنيدي يجمع المعلومات عن أقصر طريق بحري يؤدي إلى الهند، ووطد علاقته بحاكم مالينديي الذي أمده بملاح مسلم عربي هو شهاب الدين أحمد بن ماجد ليساعده في الوصول إلى الهند.

أبحر دي جاما من ميناء مالينديي بصحبة ابن ماجد نحو الهند، فوصل إليها عام ١٤٩٨م، ونزل في كاليقوط، وعقد معاهدة مع حاكمها الزامورين.

الأعمال الوحشية ضد المسلمين

كان البرتغاليون يرغبون في الوصول إلى آخر ديار الإسلام، ولكنهم ينسوا من ذلك فما وصلوا إلى منطقة إلا وجدوا فيها مسلمين حيث كان المحيط الهندي آنذاك بحرًا إسلاميًا خالصًا، لذلك فكروا في الانتقام من المسلمين وغزوهم في عقر دارهم في أرض العرب.

عندما وصل فاسكو دي جاما إلى قاليقوط، وجد فيها مسلمين، واستقبله حاكمها استقبالاً سيئًا فأضمر له الحقد، وعاد إلى البرتغال، ولكنه عاد بعد مدة على رأس حملة جديدة، واتجه مباشرة إلى قاليقوط، وضربها بالقنابل انتقامًا لزيارته الأولى لها.

أغرق فاسكو دي جاما سفينة في خليج عمان تنقل الحجاج من الهند إلى مكة، وعلى ظهرها مائة حاج حيث أعدمهم جميعًا بعد أن فعل بهم الأفاعيل، ثم عاد إلى كالكوتا فأحرق مجموعة من المراكب كانت محملة بالأرز، وقطع أيدي وآذان وأنوف بحارتها، وكان في مدينة كيلوا في شرق أفريقيا ثلاثمائة مسجد، دمر معظمها على أيدي البرتغاليين بمجرد دخولهم المدينة، وأعلن البرتغاليون بعد انتصارهم على المماليك في معركة ديو البحرية أنهم سيهدمون الأماكن المقدسة في مكة والمدينة، وأنهم سيزيلون معها آخر آثار الإسلام، وهذا ما جعل العثمانيين يتجهون نحو بلاد العرب يضمونها إلى دولتهم ليقفوا في وجه البرتغاليين.

مشروعات البوكيرك

خلف البوكيرك فاسكو دي جاما، والذي يعود إليه الفضل في توطيد دعائم

الإمبراطورية البرتغالية، تضمنت مشروعاته قبل موته تحويل مياة نهر النيل إلى البحر الأحمر ليحرم مصر من ري أراضيها، ويخرب شبكة الري التي كانت قائمة فيها آنذاك، وتهديم المدينة المنورة في شبه جزيرة العرب، ونبش قبر الرسول محمد ﷺ، وأخذ كنوزه حيث كان يتصور أن ضريحه مليئ باللآليء والمجوهرات شأن الفاتيكان، وسرقة رفات الرسول ﷺ، وجعلها رهينة حتى يتخلى المسلمون عن الأماكن المقدسة في فلسطين.

خطاب البوكيرك

ألقى البوكيرك خطابًا هامًا ـ يقطر حقدًا على المسلمين ـ قبل هجومه الثاني على مدينة ملقا في شبه جزيرة الملايو عام ٩١٧هـ/ ١٥١١م، جاء فيه:

[الأمر الأول هو الخدمة الكبرى التي سنقدمها للرب عندما نطرد المسلمين من هذه البلاد، ونخمد نار هذه الطائفة المحمدية، حتى لا تعود للظهور بعد ذلك أبدًا، وأنا شديد الحماسة لمثل هذه النتيجة.. إذ استطعنا تخليص ملقا من أيديهم فستنهار القاهرة، وستنهار بعدها مكة] (١).

وعندما انتصر البرتغاليون في ملقا استدعى ذلك إقامة قداس شكر في أوروبا عام ٩٢١هـ/ ١٥١٥م. وقال أحد الخطباء في هذا القداس: إن هذا سيسهل استعادة القدس، وفسر كيف أن الصليب وصل إلى أماكن بعيدة، واتهم سلطان ملقا بأنه مسلم متعصب يكره النصارى، ونادى بحرب صليبية جديدة لاحتلال القدس (٢).

الرسائل المتبادلة بين ملك البرتغال وملكة الحبشة

أرسل ملك البرتغال عمانوئيل إلى ملكة الحبشة إلينى رسالة يُشَمُ منها روائح الحقد على المسلمين جاء في إحدى رسائل إلينى :

[بسم الله، والسلام على عمانوئيل سيد البحار، وقاهر المسلمين القساة الكفرة، وتحياتي إليكم ودعواتي لكم، لقد وصل إلى مسمعنا أن سلطان مصر جهز جيشًا ضخمًا ليضرب قواتكم ويثأر من الهزائم التي ألحقها بها قوادكم في الهند، ونحن على استعداد

(١) نفس المصدر السابق نقلاً عن د. نبيل الطويل ـ الإسلام في المشرق الأقصى.
(٢) المصدر السابق.

لمقاومة هجمات الكفرة بإرسال أكبر عدد من جنودنا في البحر الأحمر، وإلى مكة، وإلى جزيرة باب المندب، وإذا أردتم نسيرها إلى جدة أو الطور. وذلك لنقضي قضاءً تامًا على جرثومة الكفر، ولعله قد آن الوقت لتحقيق النبوءة القائلة بظهور ملك مسيحي يستطيع في وقت قصير أن يُبيد الشعوب الإسلامية المتبربرة، ولما كانت قواتنا متوغلة في الداخل، وبعيدة عن البحر الذي ليس لنا فيه قوة أو سلطان، فإن الاتفاق معكم ضروري، إذ أنكم أهل بأس شديد في الحرب البحرية] (١).

الاكتشافات الأسبانية

لم تكن الروح الصليبية أقل ظهورًا عند الأسبان منها عند إخوانهم البرتغاليين.. دفعهم الحقد الصليبي الأعمى كذلك إلى محاولة تطويق المسلمين والقضاء عليهم قضاءً تامًا.

تلقى الأسبان المساعدات من أوروبا، حيث نجد معظم ملاحيها ليسوا من الأسبان وإنما من باقي دول أوروبا التي كانت تمدهم بكامل إمكاناتها.

كانت مهمة الأسبان الالتفاف على المسلمين من ناحية الشرق، فكانت رحلات كريستوفر كولمبس عام ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م إلى جزر كناريا، ثم جزر الأنتيل في أميركا الوسطى، ثم رحلات أمريكو فيسبوشي الفلورنسي الأصل، الذي توصل إلى أن الأرض التي وصلها كولمبس هي أرض جديدة بالنسبة إلى أوروبا. ثم رحلات ماجلان من أشبيلية عام ٩٢٦هـ/ ١٥١٩م، والتي طاف فيها حول أمريكا الجنوبية، ثم وصل إلى الجزر التي أطلق عليها فيما بعد جزر الفلبين تخليدًا لملك أسبانيا آنذاك فيليب الثاني.

دخل ماجلان في معارك مع المسلمين في تلك الجزر، وطلب منهم الاستسلام بعد أن صب عليهم جام غضبه قائلاً لهم: [إنني باسم المسيح أطلب إليكم التسليم ونحن أصحاب الحضارة أولى منكم بحكم هذه البلاد]، فأجابه السكان المسلمون بأن الدين كله لله، وأنهم يعبدون ربًا واحدًا هو إله الناس جميعًا، ثم انقضوا عليه وقتلوه ورفضوا تسليم جثته للأسبان، ولا يزال قبره هناك شاهدًا على ذلك.

(١) المرجع السابق نقلاً عن حامد عمار ـ علاقة الدولة المملوكية بالدول الأفريقية.

هل كان فاسكو دي جاما أول من كشف طريق رأس الرجاء الصالح؟

أكدت الأبحاث التاريخية أن فاسكو دي جاما البرتغالي لم يكن هو الذي كشف طريق رأس الرجاء الصالح، وأن المناطق التي وصل إليها الصليبيون من أسبان وبرتغاليين وغيرهم كانت معروفة للمسلمين قبل ذلك بأكثر من أربعة قرون، وأن تجارة العالم كله كانت تمر في أيدي المسلمين من أرض الصين شرقًا إلى الجزر البريطانية شمالاً وغربًا، وكانوا يخططون الشاطيء الأسيوي الأفريقي ويحفظونه على خريطتهم، وعلى هذه الخرائط اعتمد فاسكو دي جاما في رحلته.

ثم إنه من الثابت تاريخيًا أن أحمد بن ماجد البحارة الولي المسلم كان قائد سفن فاسكو دي جاما [1].

اكتشف الدكتور ستانلي تيمور قبرًا في مقاطعة رودسيا على مقربة من نهر الزامبيزي يعود إلى ما قبل ثلاثة عشر قرنًا وقد نقِشَ عليه:

[بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله، هذا قبر سلام بن صالح الذي انتقل من دار الدنيا إلى دار الآخرة في السنة الخامسة والتسعين من هجرة النبي العربي ﷺ].

وقد استدل ستانلي من ذلك أن المسلمين قد وصلوا تلك الأصقاع في جنوب أفريقيا، وأنهم قد استثمروا مناجم الذهب، واستدل من آثار عربية أخرى وجدها في تلك البقاع على أن المسلمين قد استثمروا تلك البلاد زمنًا طويلاً قبل أن يصل إليها البرتغاليون.

كما أثبت المقريزي وأصحاب الخطط، أن كل سواحل أفريقيا الشمالية والشرقية والجنوبية، قد كشفها العرب بعد الفتح الإسلامي بزمن وجيز، على عهد الخلفاء الأمويين والعباسيين، في إبان مجد العرب وسعة سلطانهم، ثم توغلوا من مجاهل النيل والنيجر والكونغو.

وفي بدء الفتوح الإسلامية، اجتازت مراكبهم سواحل أفريقيا كلها، وملكوا الصومال ومباسا وزنجبار وموزامبيق وجزائر القمر، وسعوا تجارتهم في تلك الجهات، فاتجروا في الذهب وريش النعام والعاج والتوابل والطيور [2].

---

(١) انظر أنور الجندي ـ معالم التاريخ الإسلامي المعاصر ـ ص٤١ ـ دار الإصلاح.

(٢) د. جمال عبدالهادي ـ المرجع السابق نقلاً عن محمود شاكر، نقلاً عن مصطفى الشهابي ـ الجغرافيون العرب ص٣١.

عرف المسلمون أقصى جنوب أفريقيا قبل أن يعرفه البرتغاليون بمدة طويلة، وادعاء البرتغال بأنها أول من عرف رأس الرجاء الصالح هو ادعاء باطل.

العرب اكتشفوا أمريكا قبل وصول الأوربيين إليها

عندما رست بواخر أمريكو فيسبوتشي على شواطيء القارة الأمريكية التي حملت اسمه، عرف أنها أرض جديدة لم تطأها بعد أقدام الأوربيين، ولم يعلموا بها، وأنها ليست جزائر الهند الغربية كما ظنها كريستوفر كولومبس الذي سبقه إليها.

ظن الأسبان أن بواخرهم أول بواخر وصلت إلى تلك الأراضي، وأن رجالهم أول رجال عرفوا تلك المنطقة، ولكن الحقيقة تدحض رأيهم، وتُكَذِّب ما أرادوا نشره.

(١) عندما وصل الأسبان إلى تلك الأرض وجدوا أناسًا يقيمون عليها، كما وجدوا حضارات قائمة وتعتبر الآن من جملة الحضارات القديمة المعروفة ألا وهي حضارة الآزتك في المكسيك.

(٢) جاء في مجلة المقتطف ١٣٤٥هـ أغسطس ١٩٢٦م أنه قد عُثِرَ على كلمات عربية في لغات هنود أمريكا يعود تاريخها لعام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، أي قبل قرنين من وصول كولومب إلى أمريكا، كما أنه قد عُثِرَ هناك على بعض العمران العربي.

(٣) تقرر بعض الأبحاث العلمية الحديثة أن المسلمين عرفوا أميركا قبل كولمب، وأن مدنية بعض الجماعات الهندية في أمريكا تشبه المدنية الإسلامية إلى حد كبير.

(٤) أكد الدكتور "هوي لزلي" أستاذ علم النبات بجامعة بنسلفانيا في محاضرة ألقاها في الجمعية الشرقية الأمريكية أن المسلمين قد وصلوا إلى السواحل الشمالية لأمريكا الجنوبية من الطرف الغربي للعالم الإسلامي، وبالتحديد من الدار البيضاء.

(٥) عثر مدير متحف البرازيل قبل نهاية القرن التاسع عشر على صخرة إلى جوار مدينة ريو دي جانيرو عليها نقوش قريبة الشكل من الحروف العربية القديمة.

(٦) عثر على رسم محراب اكتشف في أمريكا عليه آيات قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي القديم.

كل هذا يدل على أن المسلمين قد وصلوا إلى أمريكا قبل معرفة الأوربيين لها

بفترة طويلة، وأنهم قد أثروا فيها ونشروا دينهم وحضارتهم، وأن الصليبيين الأوائل قد أبادوا المسلمين وطمسوا كل آثارهم تقريبًا، وما اكتشف منها الآن فهو ضمن خرائب فعلتها أيديهم [1].

obeikandl.com

(١) د. جمال عبدالهادي ـ المرجع السابق ـ دار الوفاء.